(٩٠) سورة البلد مكية وآياتها عشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ، ووالد وما ولد ، لقد خلقنا الإنسان فى كبد ﴾ أجمع المفسرون على أن ذلك البلد هى مكة ، واعلم أن فضل مكة معروف ، فإن الله تعالى جعلها حرماً آمناً ، فقال فى المسجد الذى فيها (ومن دخله كان آمناً) وجعل ذلك المسجد قبلة لأهل المشرق والمغرب ، فقال (وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) وشرف مقام إبراهيم بقوله (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وأمر الناس بحج ذلك البيت فقال (ولله على الناس حج البيت) وقال فى البيت (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً) وقال (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئاً) وقال (وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) وحرم فيه الصيد ، وجعل البيت المعمور بإزائه ، ودحيت الدنيا من تحته ، فهذه الفضائل وأكثر منها لما اجتمعت فى مكة لا جرم أقسم الله تعالى بها ، فأما قوله (وأنت حل بهذا البلد) فالمراد منه أمور (أحدها) وأنت مقيم بهذا البلد نازل فيه حال به ، كأنه تعالى عظم مكة من جهة أنه عليه الصلاة والسلام مقيم بها (وثانيها) الحل بمعنى الحلال ، أى أن الكفار يحترمون هذا البلد ولا ينتهكون فيه المحرمات ، ثم إنهم مع ذلك ومع إكرام الله تعالى إياك بالنبوة يستحلون إيذاءك ولو تمكنوا منك لقتلوك ، فأنت حل لهم فى اعتقادهم لا يرون لك من الحرمة ما يرونه لغيرك ، عن شرحبيل : يحرمون أن يقتلوا بها صيداً أو يعضدوا بها شجرة ويستحلون إخراجك وقتلك ، وفيه تثبيت لرسول الله ﷺ وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة ، وتعجيب له من حالهم فى عدوانهم له (وثالثها) قال قتادة (وأنت حل) أى لست بآثم ، وحلال لك أن تقتل بمكة من شئت ، وذلك أن الله تعالى فتح عليه مكة وأحلها له ، وما فتحت على أحد قبله ، فأحل ما شاء وحرم ما شاء وفعل ما شاء ، فقتل عبدالله ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة ، ومقيس بن صبابة وغيرهما ، وحرم دار أبى سفيان ، ثم

قال « إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرام إلى أن تقوم الساعة لم تحل لأحد قبلى ، ولن تحل لأحد بعدى ، ولم تحل لى إلا ساعة من نهار ، فلا يعضد شجرها ، ولا يختلى خلالها ، ولا ينفر صيدها ، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد . فقال العباس : إلا الإذخر يارسول الله فإنه لبيوتنا وقبورنا ، فقال إلا الإذخر » .

فإن قيل هذه السورة مكية ، وقوله (وأنت حل) إخبار عن الحال ، والواقعة التى ذكرتم إنما حدثت فى آخر مدة هجرته إلى المدينة ، فكيف الجمع بين الأمرين ؟ قلنا قد يكون اللفظ للحال والمعنى مستقبلا ، كقوله تعالى (إنك ميت) وكما إذا قلت لمن تعده الإكرام والحباء : أنت مكرم محبو ، وهذا من الله أحسن ، لأن المستقبل عنده كالحاضر بسبب أنه لا يمنعه عن وعده مانع (ورابعها) (وأنت حل بهذا البلد) أى وأنت غير مرتكب فى هذا البلد ما يحرم عليك ارتكابه تعظيما منك لهذا البيت ، لا كالمشركين الذين يرتكبون فيه الكفر بالله ، وتكذيب الرسل (وخامسها) أنه تعالى لما أقسم بهذا البلد دل ذلك على غاية فضل هذا البلد ، ثم قال (وأنت حل بهذا البلد) أى وأنت من حل هذه البلدة المعظمة المكرمة ، وأهل هذا البلد يعرفون أصلك ونسبك وطهارتك وبراءتك طول عمرك من الأفعال القبيحة ، وهذا هو المراد بقوله تعالى (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم) وقال (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) وقوله (فقد لبثت فيكم عمراً من قبله) فيكون الغرض شرح منصب رسول الله ﷺ بكونه من هذا البلد . أما قوله (ووالد وما ولد) فاعلم أن هذا معطوف على قوله (لا أقسم بهذا البلد) وقوله (وأنت حل بهذا البلد) معترض بين المعطوف والمعطوف عليه ، وللمفسرين فيه وجوه (أحدها) الولد آدم وما ولد ذريته ، أقسم بهم إذ هم من أعجب خلق الله على وجه الأرض ، لما فيهم من البيان والنطق والتدبير واستخراج العلوم وفيهم الأنبياء والدعاة إلى الله تعالى والأنصار لدينه ، وكل ما فى الأرض مخلوق لهم وأمر الملائكة بالسجود لآدم وعلمه الأسماء كلها ، وقد قال الله تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم) فيكون القسم بجميع الآدميين صالحهم وطالحهم ، لما ذكرنا من ظهور العجائب فى هذه البنية والتركيب ، وقيل هو قسم بآدم والصالحين من أولاده ، بناء على أن الطالحين كأنهم ليسوا من أولاده وكأنهم بهائم . كما قال (إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) ، (صم بكم عمى فهم لا يرجعون)(وثانيها)أن الولد إبراهيم وإسماعيل وما ولد محمد ﷺ وذلك لأنه أقسم بمكة وإبراهيم بانيها وإسماعيل ومحمد عليهما السلام سكانها ، وفائدة التنكير الإبهام المستقل بالمدح والتعجب ، وإنما قال (وما ولد) ولم يقل ومن ولد ، للفائدة الموجودة فى قوله (والله أعلم بما وضعت) أى بأى شىء وضعت يعنى موضوعاً عجيب الشأن (وثالثها) الولد إبراهيم وما ولد جميع ولد إبراهيم بحيث يحتمل العرب والعجم . فإن جملة ولد إبراهيم هم سكان البقاع الفاضلة من أرض الشام ومصر ، وبيت المقدس وأرض العرب ومنهم الروم لأنهم ولد عيصو بن إسحق . ومنهم من خص ذلك بولد إبراهيم من العرب

ومنهم من خص ذلك بالعرب المسلمين ، وإنما قلنا أن هذا القسم واقع بولد إبراهيم المؤمنين لأنه قد شرع فى التشهد أن يقال «كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم » وهم المؤمنون (ورابعها) روى عن ابن عباس أنه قال : الولد الذى يلد ، وما ولد الذى لا يلد ، فما ههنا يكون للنفى ، وعلى هذا لابد عن إضمار الموصول أى ووالد، والذى ما ولد ، وذلك لا يجوز عند البصريين (وخامسها) يعنى كل والد ومولود ، وهذا مناسب ، لأن حرمة الخلق كلهم داخل فى هذا الكلام .

قوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى كبد﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الكبد وجوه (أحدها) قال صاحب الكشاف إن الكبد أصله من قولك كبد الرجل كبداً فهو كبد إذا وجعت كبده وانتفخت ، فاتسع فيه حتى استعمل فى كل تعب ومشقة ، ومنه اشتقت المكابدة وأصله كبده إذا أصاب كبده ، وقال آخرون الكبد شدة الأمر ومنه تكبد اللبن إذا غلظ واشتد ، ومنه الكبد لأنه دم يغلظ ويشتد ، والفرق بين القولين أن الأول جعل اسم الكبد موضوعاً للكبد ، ثم اشتقت منه الشدة . وفى الثانى جعل اللفظ موضوعاً للشدة والغلظ ، ثم اشتق منه اسم العضو (الوجه الثانى) أن الكبد هو الاستواء والاستقامة (الوجه الثالث) أن الكبد شدة الخلق والقوة ، إذا عرفت هذا فنقول أما على الوجه الأول فيحتمل أن يكون المراد شدائد الدنيا فقط ، وأن يكون المراد شدائد التكاليف فقط ، وأن يكون المراد شدائد الآخرة فقط ، وأن يكون المراد كل ذلك .

أما (الأول) فقوله (لقد خلقنا الإنسان فى كبد) أى خلقناه أطواراً كلها شدة ومشقة ، تارة فى بطن الأم ، ثم زمان الإرضاع ، ثم إذا بلغ ففى الكد فى تحصيل المعاش ، ثم بعد ذلك الموت .

وأما (الثانى) وهو الكبد فى الدين ، فقال الحسن : يكابد الشكر على السراء ، والصبر على الضراء ، ويكابد المحن فى أداء العبادات .

وأما (الثالث) وهو الآخرة ، فالموت ومساءلة الملك وظلمة القبر ، ثم البعث والعرض على الله إلى أن يستقر به القرار إما فى الجنة وإما فى النار ،

وأما (الرابع) وهو يكون اللفظ محمولا على الكل فهو الحق ، وعندى فيه وجه آخر ، وهو أنه ليس فى هذه الدنيا لذة البتة ، بل ذاك يظن أنه لذة فهو خلاص عن الألم ، فإن ما يتخيل من اللذة عند الأكل فهو خلاص عند ألم الجوع ، وما يتخيل من اللذات عند اللبس فهو خلاص عن ألم الحر والبرد ، فليس للانسان ، إلا ألم أو خلاص عن ألم وانتقال إلى آخر ، فهذا معنى قوله (لقد خلقنا الإنسان فى كبد) ويظهر منه أنه لابد للانسان من البعث والقيامة ، لأن الحكيم الذى دبر خلقة الإنسان إن كان مطلوبه منه أن يتألم ، فهذا لا يليق بالرحمة ، وإن كان مطلوبه أن لا يتألم ولا يلتذ ، ففى تركه على العدم كفاية فى هذا المطلوب ، وإن كان مطلوبه أن يلتذ ، فقد بينا أنه ليس فى هذه الحياة لذة ، وأنه خلق الإنسان فى هذه الدنيا فى كبد ومشقة ومحنة ، فإذا لابد

أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾

بعد هذه الدار من دار أخرى ، لتكون تلك الدار دار السعادات واللذات والكرمات .

وأما على (الوجه الثانى) وهو أن يفسر الكبد بالاستواء ، فقال ابن عباس : فى كبد ، أى قائماً منتصباً ، والحيوانات الآخر تمشى منكسة ، فهذا امتنان عليه بهذه الخلقة .

وأما على (الوجه الثالث) وهو أن يفسر الكبد بشدة الخلقة ، فقد قال الكلبى : نزلت هذه الآية فى رجل من بنى جمح يكنى أبا الأشد ، وكان يجعل تحت قدميه الأديم العكاظى ، فيجتذبونه من تحت قدميه فيتمزق الأديم ولم تزل قدماه ، واعلم أن اللائق بالآية هو الوجه الأول .

﴿ المسألة الثانية ﴾ حرف فى واللام متقاربان ، تقول إنما أنت للعناء والنصب ، وإنما أنت فى العناء والنصب ، وفيه وجه آخر وهو أن قوله (فى كبد) يدل على أن الكبد قد أحاط به إحاطة الظرف بالمظروف ، وفيه إشارة إلى ما ذكرنا أنه ليس فى الدنيا إلا الكد والمحنة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ منهم من قال : المراد بالإنسان إنسان معين ، وهو الذى وصفناه بالقوة ، والأكثرون على أنه عام يدخل فيه كل أحد وإن كنا لا نمنع من أن يكون ورد عند فعل فعله ذلك الرجل .

قوله تعالى : ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴾ اعلم أنا إن فسرنا الكبد بالشدة فى القوة ، فالمعنى أيحسب ذلك الإنسان الشديد أنه لشدته لا يقدر عليه أحد ، وإن فسرنا المحنة والبلاء كان المعنى تسهيل ذلك على القلب ، كأنه يقول وهب أن الإنسان كان فى النعمة والقدرة ، أفيظن أنه فى تلك الحالة لا يقدر عليه أحد ؟ ثم اختلفوا فقال بعضهم لن يقدر على بعثه ومجازاته فكأنه خطاب مع من أنكر البعث ، وقال آخرون : المراد لن يقدر على تغيير أحواله ظناً منه أنه قوى على الأمور لايدافع عن مراده ، وقوله (أيحسب) استفهام على سبيل الإنكار .

قوله تعالى : ﴿ يقول أهلكت مالا لبداً ﴾ قال أبو عبيدة : لبد ، فعل من التلبيد وهو المال الكثير بعضه على بعض ، قال الزجاج فعل للكثرة يقال رجل حطم إذا كان كثير الحطم ، قال الفراء واحدته لبدة ولبد جمع وجعله بعضهم واحداً ، ونظيره قسم وحطم وهو فى الوجهين جميعاً الكثير ، قال الليث مال لبد لا يخاف فناؤه من كثرته . وقد ذكرنا تفسير هذا الحرف عند قوله (يكونون عليه لبداً) والمعنى أن هذا الكافر يقول أهلكت فى عداوة محمد مالا كثيراً ، والمراد كثرة ما أنفقه فيما كان أهل الجاهلية يسمونه مكارم ، ويدعونه معالى ومفاخر .

قوله تعالى : ﴿ أيحسب أن لم يره أحد ﴾ فيه وجهان (الأول) قال قتادة أيظن أن الله لم

أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾

يره ولم يسأله عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه (الثانى) قال الكلبى كان كاذباً لم ينفق شيئاً ، فقال الله تعالى : أيظن أن الله تعالى مارآى ذلك منه ، فعل أو لم يفعل ، أنفق أو لم ينفق ، بل رآه وعلم منه خلاف ما قال .

واعلم أنه تعالى لما حكى عن ذلك الكافر قوله (أيحسب أن لن يقدر عليه أحد) أقام الدلالة على كمال قدرته فقال تعالى ﴿ ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين ﴾ وعجائب هذه الأعضاء مذكورة فى كتب التشريح ، قال أهل العربية : النجد الطريق فى ارتفاع فكأنه لما وضحت الدلائل جعلت كالطريق المرتفعة العالية بسبب أنها واضحة للعقول كوضوح الطريق العالى للأبصار ، وإلى هذا التأويل ذهب عامة المفسرين فى النجدين وهو أنهما سبيلا الخير والشر ، وعن أبى هريرة أنه عليه السلام قال « إنما هما النجدان ، نجد الخير ونجد الشر ، ولا يكون نجد الشر أحب إلى أحدكم من نجد الخير » وهذه الآية كالآية فى (هل أتى على الإنسان) إلى قوله (فجعلناه سميعاً بصيراً ، إنا هديناه السبيل ، إما شاكراً وإما كفوراً) وقال الحسن ، قال (أهلكت مالا لبداً) فمن الذى يحاسبنى عليه ؟ فقيل الذى قدر على أن يخلق لك هذه الأعضاء قادر على محاسبتك ، وروى عن ابن عباس وسعيد بن المسيب ، أنهما الثديان ، ومن قال ذلك ذهب إلى أنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه ، والله تعالى هدى الطفل الصغير حتى ارتضعها ، قال القفال : والتأويل هو الأول ، ثم قرر وجه الاستدلال به ، فقال إن من قدر على أن يخلق من الماء المهين قلباً عقولا ولساناً قولا ، فهو على إهلاك ما خلق قادر ، وبما يخفيه المخلوق عالم ، فما العذر فى الذهاب عن هذا مع وضوحه وما الحجة فى الكفر بالله من تظاهر نعمه ، وما العلة فى التعزيز على الله وعلى أنصار دينه بالمال وهو المعطى له ، وهو الممكن من الانتفاع به .

ثم إنه سبحانه وتعالى دل عباده على الوجوه الفاضلة التى تنفق فيها الأموال ، وعرف هذا الكافر أن إنفاقه كان فاسداً وغير مفيد ، فقال تعالى ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الاقتحام الدخول فى الأمر الشديد يقال قحم يقحم قحوماً ، واقتحم اقتحاماً وتقحم تقحماً إذا ركب القحم ، وهى المهالك والأمور العظام والعقبة طريق فى الجبل وعر والجمع العقب والعقاب ، ثم ذكر المفسرون فى العقبة ههنا وجهين (الأول) أنها فى الآخرة وقال عطاء يريد عقبة جهنم ، وقال الكلبى هى عقبة بين الجنة والنار ، وقال ابن عمر هى جبل زلال فى جهنم وقال مجاهد والضحاك هى الصراط يضرب على جهنم ، وهو معنى قول الكلبى إنها عقبة الجنة

وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾

والنار ، قال الواحدى وهذا تفسير فيه نظر لأن من المعلوم أن [بنى] هذا الإنسان وغيره لم يقتحموا عقبة جهنم ولا جاوزوها فحمل الآية عليه يكون إيضاحاً للواضحات ، ويدل عليه أنه لما قال (وما أدراك ما العقبة) فسره بفك الرقبة وبالإطعام (الوجه الثانى) فى تفسير العقبة هو أن ذكر العقبة ههنا مثل ضربه الله لمجاهدة النفس والشيطان فى أعمال البر ، وهو قول الحسن ومقاتل قال الحسن عقبة الله شديدة وهى مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه من شياطين الإنس والجن ، وأقول هذا التفسير هو الحق لأن الإنسان يريد أن يترقى من عالم الحس والخيال إلى يفاع عالم الأنوار الإلهية ولاشك أن بينه وبينها عقبات سامية دونها صواعق حامية ، ومجاوزتها صعبة والترقى إليها شديد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن فى الآية إشكالا وهو أنه قلما توجد لا الداخلة على المضى إلا مكررة ، تقول لا جنبنى ولا بعدنى قال تعالى (فلا صدق ولا صلى) وفى هذه الآية ما جاء التكرير فما السبب فيه ؟ أجيب عنه من وجوه (الأول) قال الزجاج إنها متكررة فى المعنى لأن معنى (فلا اقتحم العقبة) فلا فك رقبة ولا أطعم مسكيناً ، ألا ترى أنه فسر اقتحام العقبة بذلك ، وقوله (ثم كان من الذين آمنوا) يدل أيضاً على معنى (فلا اقتحم العقبة) ولا آمن (الثانى) قال أبو على الفارسى معنى (فلا اقتحم العقبة) لم يقتحمها ، وإذا كانت لا بمعنى لم كان التكرير غير واجب كما لا يجب التكرير مع لم ، فإن تكررت فى موضع نحو (فلا صدق ولا صلى) فهو كتكرر ولم : نحو (لم يسرفوا ولم يقتروا) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال القفال قوله (فلا اقتحم العقبة) أى هلا أنفق ماله فيما فيه اقتحام العقبة ؟ وأما الباقون فإنهم أجروا اللفظ على ظاهره وهو الإخبار بأنه ما اقتحم العقبة

ثم قال تعالى ﴿ وما أدراك ما العقبة ﴾ فلا بد من تقدير محذوف ، لأن العقبة لا تكون فك رقبة ، فالمراد وما أدراك ما اقتحام العقبة ، وهذا تعظيم لأمر التزام الدين .

قوله تعالى : ﴿ فك رقبة ﴾ والمعنى أن اقتحام العقبة هو الفك أو الإطعام ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الفك فرق يزيل المنع كفك القيد والغل ، وفك الرقبة فرق بينها وبين صفة الرق بإيجاب الحرية وإبطال العبودية ، ومنه فك الرهن وهو إزالة غلق الرهن ، وكل شىء أطلقته فقد فككته ، ومنه فك الكتاب ، قال الفراء فى المصادر فكها يفكها فكاكا بفتح الفاء فى المصدر ولا تقل بكسرها ، ويقال كانت عادة العرب فى الأسارى شد رقابهم وأيديهم فجرى ذلك فيهم وإن لم يشدد ، ثم سمى إطلاق الأسير فكاكا ، قال الأخطل :

أبنى كليب إن عمى اللذا   قتلا الملوك وفككا الأغلال

﴿ المسألة الثانية ﴾ فك الرقبة قد يكون بأن يعتق الرجل رقبة من الرق ، وقد يكون بأن يعطى

أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾

مكاتباً ما يصرفه إلى جهة فكاك نفسه ، روى البراء بن عازب ، قال «جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله دلنى على عمل يدخلنى الجنة ، قال عتق النسمة وفك الرقبة قال يا رسول الله أوليسا واحداً ؟ قال لا ، عتق النسمة أن تنفرد بعتقها ، وفك الرقبة ، أن تعين فى ثمنها » وفيه وجه آخر وهو أن يكون المراد أن يفك المرء رقبة نفسه بما يتكلفه من العبادة التى يصير بها إلى الجنة فهى الحرية الكبرى ، ويتخلص بها من النار .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرىء (فك رقبة) أو إطعام ، والتقدير هى فك رقبة أو إطعام وقرىء (فك رقبة أو أطعم) على الإبدال من اقتحم العقبة ، وقوله (وما أدراك ما العقبة) اعتراض ، قال الفراء : وهو أشبه الوجهين بصحيح العربية لقوله (ثم كان) لأن فك وأطعم فعل ، وقوله كان فعل ، وينبغى أن يكون الذى يعطف عليه الفعل فعلا ، أما لو قيل : ثم إن كان (١) كان ذلك مناسباً لقوله (فك رقبة) بالرفع لأنه يكون عطفاً للاسم على الاسم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ عند أبى حنيفة العتق أفضل أنواع الصدقات ، وعند صاحبيه الصدقة أفضل ، والآية أدل على قول أبى حنيفة ، لتقدم العتق على الصدقة فيها .

قوله تعالى : ﴿ أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ يقال سغب سغباً إذا جاع فهو ساغب وسغبان ، قال صاحب الكشاف المسغبة والمقربة والمتربة مفعلات من سغب إذا جاع وقرب فى النسب ، يقال فلان ذو قرابتى وذو مقربتى وترب إذا افتقر ومعناه التصق بالتراب ، وأما أترب فاستغنى ، أى صار ذا مال كالتراب فى الكثرة . قال الواحدى : المتربة مصدر من قولهم ترب يترب ترباً ومتربة مثل مسغبة إذا افتقر حتى لصق بالتراب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ حاصل القول فى تفسير (يوم ذى مسغبة) ما قاله الحسن وهو نائم يوم محروص فيه على الطعام ، قال أبو على : ومعناه ما يقول النحويون فى قولهم : ليل نائم ونهار صائم أى ذو نوم وصوم .

واعلم أن إخراج المال فى وقت القحط والضرورة أثقل على النفس وأوجب للأجر ، وهو كقوله (وآتى المال على حبه) وقال (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً) وقرأ الحسن (ذا مسغبة) نصبه بإطعام ومعناه أو إطعام فى يوم من الأيام ذا مسغبة .

قوله تعالى : ﴿ يتيما ذا مقربة ﴾ قال الزجاج ذا قرابة تقول زيد ذو قرابتى وذو مقربتى ، وزيد

(١) أى المعطوف (إن كان) وهى جملة إسمية شرطية .

أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾

قرابتى قبيح لأن القرابة مصدر ، قال مقاتل يعنى يتيما بينه وبينه قرابة ، فقد اجتمع فيه حقان يتم وقرابة ، فاطعامه أفضل ، وقيل يدخل فيه القرب بالجوار ، كما يدخل فيه القرب بالنسب .

أما قوله تعالى ﴿ أو مسكيناً ذا متربة ﴾ أى مسكيناً قد لصق بالتراب من فقره وضره ، فليس فوقه مايستره ولا تحته مايوطئه ، روى أن ابن عباس مر بمسكين لاصق بالتراب فقال : هذاالذى قال الله تعالى [فيه] (أومسكيناً ذا متربة) واحتج الشافعى بهذه الآية على أن المسكين قد يكون بحيث يملك شيئاً ، لأنه لوكان لفظ المسكين دليلا على أنه لا يملك شيئاً البتة ، لكان تقييده بقوله (ذامتربة) تكريراً وهو غير جائز .

أما قوله تعالى ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ أي كان مقتحم العقبة من الذين آمنوا ، فانه إن لم يكن منهم لم ينتفع بشىء من هذه الطاعات ، ولا مقتحما للعقبة (فان قيل) لما كان الإيمان شرطاً للانتفاع بهذه الطاعات وجب كونه مقدماً عليها ، فما السبب فى أن الله تعالى أخره عنها بقوله (ثم كان من الذين آمنوا) ؟ (والجواب) من وجوه (أحدها) أن هذا التراخى فى الذكر لا فى الوجود ، كقوله :

إن من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جده

لم يرد بقوله ، ثم ساد أبوه التأخر فى الوجود ، وإنما المعنى ، ثم اذكر أنه ساد أبوه ، كذلك فى الآية (وثانيها) أن يكون المراد ، ثم كان فى عاقبة أمره من الذين آمنوا وهوأن يموت على الإيمان فإن الموافاة شرط الانتفاع بالطاعات (وثالثها) أن من أتى بهذه القرب تقرباً إلى الله تعالى قبل إيمانه بمحمد ﷺ ثم آمن بعد ذلك بمحمد عليه الصلاة والسلام ، فعند بعضهم أنه يثاب على تلك الطاعات ، قالوا ويدل عليه ما روى « أن حكيم بن حزام بعد ما أسلم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا كنا نأتى بأعمال الخير فى الجاهلية فهل لنا منها شىء ؟ فقال عليه السلام أسلمت على ماقدمت من الخير » (ورابعها) أن المراد من قوله (ثم كان من الذين آمنوا) تراخى الإيمان وتباعده فى الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة لأن درجة ثواب الإيمان أعظم بكثير من درجة ثواب سائر الأعمال .

أما قوله تعالى ﴿ وتواصو بالصبر وتوصوا بالمرحمة ﴾ فالمعنى أنه كان يوصى بعضهم بعضاً بالصبر على الإيمان والثبات عليه أو الصبر على المعاصى وعلى الطاعات والمحن التى يبتلى بها المؤمن ثم ضم إليه التواصى بالمرحمة وهو أن يحث بعضهم بعضاً على أن يرحم المظلوم أو الفقير ، أو يرحم المقدم على منكر فيمنعه منه لأن كل ذلك داخل فى الرحمة ، وهذا يدل على أنه يجب على المرء أن

أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

يدل غيره على طريق الحق ويمنعه من سلوك طريق الشر والباطل ما أمكنه ، واعلم أن قوله (ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) يعنى يكون مقتحم العقبة من هذه الزمرة والطائفة ، وهذه الطائفة هم أكابر الصحابة كالخلفاء الأربعة وغيرهم ، فانهم كانوا مبالغين فى الصبر على شدائد الدين والرحمة على الخلق ، وبالجملة فقوله (وتواصوا بالصبر) إشارة إلى التعظيم لأمر الله ، وقوله (وتواصوا بالمرحمة إشارة إلى الشفقة على خلق الله ، ومدار أمر الطاعات ليس إلا على هذين الأصلين وهو الذى قاله بعض المحققين ، إن الأصل فى التصوف أمران : صدق مع الحق ؟ وخلق مع الخلق .

ثم إنه سبحانه لما وصف هؤلاء المؤمنين بين أنهم من هم فى القيامة فقال :

﴿ أولئك أصحاب الميمنة ﴾ وإنما ذكر ذلك لأنه تعالى بين حالهم فى سورة الواقعة وأنهم (فى سدر مخضود ، وطلح منضود) قال صاحب الكشاف : الميمنة والمشأمة ، اليمين والشمال ، أو اليمن والشؤم ، أى الميامين على أنفسهم والمشائيم عليها .

ثم قال تعالى ﴿ والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة ﴾ فقيل المراد من يؤتى كتابه بشماله أو وراء ظهره ، وقد تقدم وصف الله لهم بأنهم (فى سموم وحميم وظل من يحموم) إلى غير ذلك

قوله تعالى : ﴿ عليهم نار مؤصدة ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الفراء والزجاج والمبرد يقال آصدت الباب وأوصدته إذا أغلقته ، فمن قرأ مؤصدة بالهمزة أخذها من آصدت فهمز اسم المفعول ، ويجوز أن يكون من أوصدت ولكنه همز على لغة من يهمز الواو إذا كان قبلها ضمة نحو مؤسى ، ومن لم يهمز احتمل أيضاً أمرين :

(أحدهما) أن يكون من لغة من قال أوصدت فلم يهمز اسم المفعول كما يقال من أوعدته موعد .

(الآخر) أن يكون من آصد مثل آمن ولكنه خفف كما فى تخفيف جؤنة وبؤس جونة وبوس فيقلبها فى التخفيف واواً ، قال الفراء ويقال من هذا الأصيد والوصيد وهو الباب المطبق ، إذا عرفت هذا فنقول : قال مقاتل (عليهم نار مؤصدة) يعنى أبوابها مطبقة فلا يفتح لهم باب ولا يخرج منها غم ولا يدخل فيها روح أبد الآباد ، وقيل المراد إحاطة النيران بهم ، كقوله (أحاط بهم سرادقها) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (المؤصدة) هى الأبواب ، وقد جرت صفة للنار على تقدير : عليهم نار مؤصدة الأبواب ، فكلما تركت الإضافة عاد التنوين لأنهما يتعاقبان ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

سورة «البلد»

مكية باتفاق . وهي عشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾

يجوزُ أن تكونَ «لا» زائدةً، كما تقدَّم في ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ قاله الأخفش. أي: أُقسم؛ لأنه قال: ﴿بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ وقد أَقْسَم به في قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ٣] فكيف يَجْحَد القسم به وقد أَقْسَم به. قال الشاعر:

تَـذَكَّـرتُ لـيـلَـى فـاعْـتَـرتْـنـي صَـبـابـةٌ وكـاد صـمِـيـمُ الـقـلـبِ لا يَـتـقـطَّـعُ[1]

أي: يتقطَّعُ، ودخل حرفُ «لا» صلةً، ومنه قولُه تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] بدليل قوله تعالى في «صَ»: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [الآية: ٧٥].

وقرأ الحسنُ والأعمشُ وابنُ كثير: «لَأُقْسِم» من غيرِ ألفٍ بعد اللام إثباتاً[2].

وأجاز الأخفشُ أيضاً أن تكون بمعنى «أَلَا»[3].

وقيل: ليستْ بنفي القَسَم، وإنَّما هو كقولِ العربِ: لا واللهِ لا فعلتُ كذا، ولا واللهِ ما كان كذا، ولا واللهِ لَأَ فْعَلنَّ كذا.

وقيل: هي نفيٌ صحيحٌ، والمعنى: لا أقسمُ بهذا البلدِ إذا لم تكن فيه، بعد خروجك منه. حكاه مكِّيٌّ. ورواه ابنُ أبي نَجيحٍ عن مجاهد قال: «لا» ردٌّ عليهم[4]،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٢١ وفيه: ضمير، بدل: صميم ، وسلف ٢١/ ٤٠٤ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٢١ ، وذكرها عن الحسن ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٦١ ، والمشهور عن ابن كثير في هذه الآية كقراءة الجماعة، وينظر ما سلف ٢١/ ٤٠٤ - ٤٠٥ .

(٣) ذكره عن الأخفش النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٢٧ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٧ .

وهذا اختيارُ ابنِ العربيِّ؛ لأنه قال: وأمَّا مَن قال: إنها رَدٌّ، فهو قولٌ ليس له ردٌّ؛ لأنه يصحُّ به المعنى، ويتمكَّن اللفظُ والمراد. فهو ردٌّ لكلامِ مَن أنْكَر البعثَ ثم ابتدأ القسم(١).

وقال القشيريُّ: قولهُ «لا»: ردٌّ لمَا توهَّم الإنسانُ المذكورُ في هذه السورة، المغرورُ بالدنيا. أي: ليس الأمرُ كما يَحْسَبُه، مِن أنَّه لن يقدرَ عليه أحدٌ، ثم ابتدأ القسم.

و«البلد»: هي مكة، أجمعوا عليه. أي: أُقسِمُ بالبلد الحرامِ الذي أنت فيه، لكرامتك عليَّ وحبِّي لك. وقال الواسطيُّ: أي: نحلفُ لك بهذا البلد الذي شَرَّفْتَه بمكانكَ فيه حيًّا، وببركتِكَ ميتاً، يعني المدينة. والأوّلُ أصح؛ لأنَّ السورةَ نزلت بمكة باتِّفاق.

قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾

يعني في المستقبل، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. ومثلُه واسعٌ في كلام العِبَاد(٢)؛ تقولُ لمَن تَعِدُه الإكرامَ والحِباءَ: أنت مُكرمٌ مَحْبُوٌّ. وهو في كلام اللهِ أوسَعُ(٣)، لأنَّ الأحوال المستقبَلَةَ عنده كالحاضرة المشاهَدَة؛ وكفاك دليلاً قاطعاً على أنه للاستقبال، وأنَّ تفسيره بالحالِ مُحالٌ: أنَّ السورة بالاتِّفاق مكيةٌ قبلَ الفتح. فروى منصورٌ عن مجاهد: «وأَنتَ حِلٌّ» قال: ما صنعت فيه من شيءٍ فأنت في حِلٍّ. وكذا قال ابن عباس: أُحِلَّ له يومَ دخل مكةَ أن يقتل مَن شاء، فقتل ابنَ خَطَلٍ ومِقْيس بنَ صبَابةَ وغيرَهما. ولم يَحِلَّ لأحدٍ من الناس أن يقتلَ بها أحداً بعد رسول الله ﷺ(٤). وروى السُّديُّ قال: أنت في حِلٍّ ممن قاتلك أن تقتله . وروى أبو

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٢١ و١٩٢٢ .

(٢) في (د) و(م): العرب، والمثبت من باقي النسخ والكشاف ٤/ ٢٥٥ ، والكلام منه.

(٣) في النسخ: واسع، والمثبت من الكشاف.

(٤) أخرج قول ابن عباس ومجاهد الطبري ٢٤/ ٤٠٣-٤٠٤ .

صالح عن ابن عباس قال: أُحِلَّتْ له ساعةً من نهار، ثم أُطبقتْ وحرِّمتْ إلى يوم القيامة، وذلك يومَ فتحِ مكةَ.

وثبت عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ الله حرَّم مكةَ يومَ خَلَق السماواتِ والأرضَ، فهي حَرامٌ إلى أن تقومَ الساعةُ، فلمْ تَحِلَّ لأحدٍ قَبْلي، ولا تَحِلُّ لأحدٍ بعدي، ولم تَحِلَّ لي إلَّا ساعةً من نهار» الحديث[1]. وقد تقدَّم في سورة «المائدة»[2].

ابن زيد: لم يكن بها أحدٌ حَلالاً غير النبيِّ ﷺ[3].

وقيل: وأنت مُقيمٌ فيه وهو مَحلُّك. وقيل: وأنت فيه مُحْسِنٌ، وأنا عنك فيه راضٍ. وذَكرَ أهلُ اللغةِ أنه يقال: رجلٌ حِلٌّ وحَلالٌ ومُحِلٌّ، ورجلٌ حَرَامٌ ومُحْرِمٌ وحِرْمٌ[4]. وقال قتادةُ: أنت حِلٌّ به لَستَ بآثم[5].

وقيل: هو ثناءٌ على النبيِّ ﷺ، أي: إنك غيرُ مرتكبٍ في هذا البلدِ ما يَحرُمُ عليك ارتكابُه؛ معرفةً منك بحقِّ هذا البيتِ، لا كالمشركين الذين يرتكبون الكفرَ بالله فيه. أي: أُقسِمُ بهذا البيتِ المعظَّم الذي قد عَرَفْتَ حُرمتَه، فأنتَ مقيمٌ فيه معظِّمٌ له، غير مرتكِبٍ فيه ما يحرُمُ عليك.

وقال شُرَحْبِيل بن سعد: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ أي: حلالٌ، أي: هم يحرِّمون مكةَ أن يقتلوا بها صيداً أو يَعضِدوا بها شجرةً، ثم هم مع هذا يَسْتحلُّون إخراجَك وقتلَك[6].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٥٣)، والبخاري (١٣٤٩)، ومسلم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه أحمد (٧٢٤٢)، والبخاري (١١٢)، ومسلم (١٣٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) سلف في سورة البقرة ٢/ ٣٨٣-٣٨٤، وينظر ٨/ ٢٢١.

(٣) أخرجه مطولاً الطبري ٢٤/ ٤٠٥.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٢٧.

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٧٣، والطبري ٢٤/ ٤٠٤-٤٠٥.

(٦) الكشاف ٤/ ٢٥٥، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٨، وأخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٢.

قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾

قال مجاهدٌ وقتادةُ والضحاكُ والحسنُ وأبو صالح: «وَوَالِدٍ»: آدم عليه السلام. «وما وَلَدَ» أي: وما نَسَلَ مِن وَلَدِه[١]. أَقْسَم بهم لأنهم أعْجَبُ ما خَلَقَ اللهُ تعالى على وَجْهِ الأرض؛ لمَا فيهم من التِّبيان[٢] والنُّطْقِ والتدبير، وفيهم الأنبياءُ والدُّعاةُ إلى الله تعالى.

وقيل: هو إقسامٌ بآدم والصالحين من ذريته، وأمَّا غيرُ الصالحين فكأنهم بهائم.

وقيل: الوالدُ إبراهيم. وما وَلَد: ذرِّيتُه؛ قاله أبو عمران الجونيُّ[٣]، ثم يحتملُ أنه يريد جميعَ ذرِّيتِه، ويحتملُ أنه يريدُ المسلمين من ذريته.

قال الفرَّاء: وصَلحَتْ «ما» للناس، كقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾ [النساء:٣]، وكقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل:٣] وهو الخالقُ للذَّكرِ والأنثى.

وقيل: «ما» مع ما بعدَها في موضع المصدر؛ أي: ووالدٍ ووِلادته، كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس:٥][٤].

وقال عكرمة وسعيد بن جُبير: «ووالدٍ» يعني الذي يُوْلَدُ له، «وما ولد» يعني العاقرَ الذي لا يُولدُ له ـ وقاله ابن عباس[٥]. و«ما» على هذا نفيٌ. وهو بعيدٌ، ولا يصحُّ إلَّا بإضمارِ الموصول، أي: ووالدٍ والذي ما وَلَد، وذلك لا يجوزُ عند البصريين[٦].

وقيل: هو عمومٌ في كلِّ والدٍ وكلِّ مولودٍ؛ قاله عطيةُ العَوفيُّ. ورُوِي معناه عن ابن عباس أيضاً[٧]. وهو اختيارُ الطبريِّ[٨].

---

(١) أخرج قولهم الطبري ٢٤/٤٠٦-٤٠٧ .

(٢) في (ظ) و(ي): البيان.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/٤٠٨ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٤ .

(٥) تفسير الطبري ٢٤/٤٠٦ عن ابن عباس وعكرمة.

(٦) تفسير الرازي ٣١/١٨٢ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/٤٠٦ من طريق عطية عن ابن عباس.

(٨) في التفسير ٢٤/٤٠٨ .

قال الماوَرْديُّ[١]: ويحتملُ أنَّ الوالد النبيُّ ﷺ؛ لتقدُّم ذِكْرِه. وما وَلَد أمَّتُه؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّما أنا لكم بمنزلةِ الوالدِ أُعلِّمكم»[٢]. فأقسم به وبأمَّته بعد أن أقْسَم ببلده؛ مبالغةً في تشريفه عليه الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤﴾

إلى هنا انتهى القَسَم، وهذا جوابُه. ولله أن يُقسِمَ بما يشاء من مخلوقاته لتعظيمها، كما تقدَّم. والإنسانُ هنا ابنُ آدم. ﴿فِي كَبَدٍ﴾ أي: في شدَّةٍ وعناءٍ من مُكابدة الدنيا. وأصلُ الكَبَدِ: الشدَّةُ. ومنه: تَكَبَّد اللَّبَنُ: غَلُظَ وخَثُر واشتدَّ. ومنه الكَبِد؛ لأنَّه دمٌ تَغلَّظ واشتدَّ[٣]. ويقال: كابَدْتُ هذا الأمر: قاسَيْتُ شدَّته، قال لَبيد:

يا عينُ هلَّا بَكَيْتِ أرْبدَ إذْ قُمْنا وقام الخصومُ في كَبَدِ[٤]

قال ابن عباس والحسن: «في كَبَد» أي: في شدَّةٍ ونَصَب. وعن ابن عباس أيضاً: في شدَّةٍ من حَمْلِه ووِلَادتِه ورضاعِه ونَبْتِ أسنانِه، وغيرِ ذلك من أحواله[٥]. وروى عكرمةُ عنه قال: منتصباً في بَطْنِ أمِّه[٦]. والكَبَدُ: الاستواءُ والاستقامةُ. فهذا امتنانٌ عليه في الخِلْقة. ولم يَخْلقِ الله جلَّ ثناؤه دابةً في بطن أمِّها إلَّا مُنْكَبَّةً على وجهها إلا ابنَ آدم، فإنه منتصبٌ انتصاباً. وهو قولُ النخَعِيِّ ومجاهدٍ وغيرِهما.

ابنُ كيسان: منتصباً رأسُه في بطن أمِّه، فإذا أذِنَ الله أن يخرجَ من بطن أمِّه قَلَبَ رأسَه إلى رجلَيْ أمِّه[٧].

---

(١) في النكت والعيون ٦/ ٢٧٥ .

(٢) سلف ١٧/ ٦٦ .

(٣) تفسير الرازي ٣١/ ١٨٢ .

(٤) ديوان لبيد ص١٦٠، وأربد هو أخو لبيد، وقد سلفت قصته مع البيت ١٢/ ٣٦-٣٧ .

(٥) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٠٨-٤١٠ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٨ .

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٣ . وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٧٥ عن عكرمة وابن عباس بلفظ: في انتصابٍ في بطن أمه وبعد ولادته، ولم يخلق غيره من الحيوان منتصباً.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٤٨٨ .

وقال الحسن: يُكابِد مصائبَ الدنيا وشدائدَ الآخرة[١].

وعنه أيضاً: يكابدُ الشُّكْرَ على السَّرَّاءِ، ويكابدُ الصَّبرَ على الضَّرَّاء؛ لأنه لا يخلو من أحدهما. ورواه ابن عمر[٢].

وقال يَمانٌ: لم يَخْلُقِ الله خَلْقاً يكابِدُ ما يكابِدُ ابنُ آدمَ؛ وهو مع ذلك أضعفُ الخَلْقِ[٣].

قال عُلماؤنا: أولُ ما يكابدُ قَطْعَ سُرَّته، ثم إذا قُمِطَ قِماطاً، وشدَّ رِباطاً، يكابدُ الضِّيقَ والتَّعبَ، ثم يكابدُ الارْتِضاعَ، ولو فاته لضاع، ثم يكابدُ نَبْتَ أسنانِه، وتحرُّكَ لسانِه، ثم يكابدُ الفِطامَ الذي هو أشدُّ من اللِّطام، ثم يكابدُ الختانَ، والأوجاعَ والأحزانَ، ثم يكابدُ المُعَلِّم وصَوْلَتَه، والمؤدِّبَ وسياستَه، والأستاذَ وهَيبتَه، ثم يكابدُ شُغْلَ التَّزْويجِ والتعجيل فيه[٤]، ثم يكابدُ شُغْلَ الأولادِ، والخدمِ والأجناد، ثم يكابدُ شغلَ الدُّورِ وبناءَ القصور. ثم الكِبرَ والهَرَمَ وضَعْفَ الرُّكْبةِ والقدم، في مصائبَ يكثرُ تعدادُها، ونوائبَ يطولُ إيرادُها، من صُداعِ الرأس، ووجعِ الأضْراسِ، ورَمَدِ العين، وغَمِّ الدَّين، ووجعِ السِّنِّ، وألَمِ الأُذُنِ. ويكابدُ مِحَناً في المالِ والنَّفس، مثل الضَّربِ والحَبْس، ولا يمضي عليه يومٌ إلَّا يُقاسي فيه شدَّةً، ولا يكابدُ إلَّا مَشَقَّةً، ثم الموتُ بعد ذلك كلِّه، ثم مُساءلةُ المَلَكِ، وضَغطةُ القبرِ وظلمتهُ، ثم البعثُ والعَرْضُ على الله، إلى أنْ يستقرَّ به القرارُ، إمَّا في الجنة وإمَّا في النار؛ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾، فلو كان الأمرُ إليه لَمَا اختار هذه الشدائد. ودلَّ هذا على أنَّ له خالقاً دبَّره، وقضى عليه بهذه الأحوال، فلْيَمْتثِلْ أمرَه.

وقال ابن زيد: الإنسانُ هنا: آدمُ، وقولُه: «في كَبَدٍ» أي: في وَسَطِ السماء[٥].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٨٨، وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٢٣١)، والطبري ٢٤/ ٤٠٩.

(٢) تفسير الرازي ٣١/ ١٨٣ عن الحسن، والنكت والعيون ٦/ ٢٧٦ عن ابن عمر.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٨٨.

(٤) بعده في النسخ الخطية: والتزويج.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٧٦، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٤١٢.

وقال الكَلْبيُّ: إنَّ هذا نزل في رجلٍ من بني جُمَحَ، كان يقال له: أَبُو الأشدّين، وكان يأخذُ الأديمَ العُكاظِيَّ فيجعلُه تحت قدميه، ويقولُ: مَن أزالني عنه فله كذا. فيجذبهُ عشرةٌ حتى يتمزَّق ولا تزولُ قدماه، وكان من أعداء النبيِّ ﷺ، وفيه نزل: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ يعني: لقوَّته[١]. وروي عن ابن عباس. ومعنى «في كَبَدٍ» أي: شديداً، يعني شديدَ الخَلْقِ، وكان مِن أشدِّ رجالِ قريش. وكذلك رُكانةُ بنُ هاشم ابنِ عبد المطلب، وكانا مَثَلاً في البأس والشدَّة.

وقيل: «في كَبَدٍ» أي: جريء القلب، غليظ الكَبِد، مع ضَعْفِ خِلْقتِه، ومهانةِ مادَّته. ابن عطاء: في ظلمةٍ وجهلٍ. الترمذيُّ: مُضِيعاً ما يَعْنيه، مُشْتغِلاً بما لا يَعْنيه.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۞ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۞ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۞ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۞ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۞﴾

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ أي: أَيظُنُّ ابنُ آدمَ أنْ لن يُعاقِبَه الله عزَّ وجلَّ. ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ﴾ أي: أنفقتُ ﴿مَالًا لُّبَدًا﴾ أي: كثيراً مجتمعاً ﴿أَيَحْسَبُ﴾ أي: أيظنُّ ﴿أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ﴾ أي: أنْ لم يُعايِنه ﴿أَحَدٌ﴾. بل عَلِمَ الله عزَّ وجلَّ ذلك منه، فكان كاذباً في قوله: أهْلَكتُ، ولم يكن أنفقَه.

وروى أبو هريرةَ قال: يوقفُ العبدُ، فيقال: ماذا عَمِلْتَ في المال الذي رزقتُك؟ فيقول: أنفقتُه وزكّيتُه. فيقال: كأنك إنَّما فعلتَ ذلك ليقال سَخِيٌّ، فقد قيل ذلك. ثم يؤمرُ به إلى النار[٢].

وعن سعيد عن قتادة: إنَّك مسؤولٌ عن مالِكَ من أينَ جمعتَ؟ وكيف أنفقت[٣]؟

وعن ابن عباس قال: كان أبو الأشدّين يقول: أنفقتُ في عداوة محمدٍ مالاً

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٤ ، والوسيط ٤/ ٤٨٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٨-٤٨٩ .

(٢) أخرجه أحمد (٨٢٧٧)، ومسلم (١٩٠٥) مطولاً من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً، وسلف ١/ ٣٣ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٧٣ ، والطبري ٢٤/ ٤١٤ .

كثيراً، وهو في ذلك كاذب(١).

وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل، أَذْنبَ فاستَفْتَى النبيَّ ﷺ، فأَمَره أن يُكَفِّر. فقال: لقد ذهب مالي في الكفَّارات والنفقات منذ دخلتُ في دِين محمدٍ(٢). وهذا القولُ منه يحتملُ أن يكونَ استطالةً بما أَنفقَ، فيكونُ طغياناً منه. أو أسفاً عليه، فيكونُ ندماً منه.

وقرأ أبو جعفر: «مالاً لُبَّداً» بتشديد الباءِ مفتوحةً(٣)، على جمعِ: لابِدٍ، مثل: راكعِ ورُكَّع، وساجِدٍ وسُجَّد، وشاهد وشُهَّد، ونحوه.

وقرأ مجاهد وحُمَيد بضمِّ الباءِ واللام مخفَّفاً، جمع لَبُود(٤). الباقون بضمِّ اللامِ وكَسْرِها وفتح الباءِ مخفَّفاً، جمع لُبْدَةٍ ولِبْدَةٍ، وهو ما تَلبَّد، يريدُ الكَثْرةَ(٥). وقد مضى في سورة الجن القولُ فيه(٦).

وروي عن النبيِّ ﷺ أنه كان يقرأ: «أَيَحسب» بضم السين في الموضعين(٧).

وقال الحسن: يقولُ: أتلفتُ مالاً كثيراً، فَمَن يحاسبني به، دعني أحسبه. أَلَمْ يعلم أنَّ الله قادر على مُحاسبته، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ يرى صنيعه(٨).

---

(١) الوسيط ٤/ ٤٨٩-٤٩٠ عن الكلبي ومقاتل، وذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٦٤ دون نسبة.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٨٤ ، وزاد المسير ٩/ ١٢٩ .

(٣) النشر ٢/ ٤٠١ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٧٤ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٨٤ .

(٥) الكشاف ٤/ ٢٥٦ ، وقراءة الجمهور (لُبَداً) بضم اللام وفتح الباء.

(٦) عند تفسير الآية (١٩) منها.

(٧) لم نقف على هذه الرواية بضم السين، وأخرج أبو عمر الدوري في جزء قراءات النبي ﷺ (١٢٨) من طريق رجل من بني عامر عن أبيه قال: صليت خلف النبي ﷺ فقرأ: «أيحسِب أن لن يقدر عليه أحد» مكسورة السين. وأخرجه أبو يعلى شاهداً على القراءة بفتح السين كما ذكر الحافظ في المطالب العالية ٣/ ٣٩٦ ، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٥٧ . وقد قرأ بكسر السين نافع وابن عامر والكسائي، والباقون بفتحها. السبعة ص١٩١-١٩٢ ، والتيسير ص٨٤ .

(٨) ذكره بنحوه الرازي ٣١/ ١٨٤ .

ثم عَدَّد عليه نعمَه فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ يُبْصِرُ بهما ﴿وَلِسَانًا﴾ يَنْطِقُ به. ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستُر بهما ثغرَه. والمعنى: نحن فَعَلنا ذلك، ونحن نقدرُ على أنْ نبعثَه ونُحصِيَ عليه ما عَمِلَه.

وقال أبو حازم: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ الله تعالى قال: يا ابنَ آدمَ، إنْ نازَعَكَ لسانُكَ فيما حرَّمْتُ عليك، فقد أعنتُكَ عليه بِطِبْقَينِ فأَطْبِقْ، وإنْ نازَعَكَ بَصَرُكَ فيما حرَّمتُ عليك، فقد أعنتُكَ عليه بِطِبْقَينِ فأَطْبِقْ، وإن نازعَكَ فَرْجُكَ إلى ما حرَّمتُ عليك، فقد أعنتُكَ عليه بِطِبْقَينِ، فأَطْبِقْ»[١].

والشَّفَةُ: أصلُها شَفَهةٌ، حُذفت منها الهاء، وتصغيرُها: شُفَيهة، والجمع: شِفاهٌ. ويقال: شَفَهات وشَفَوات، والهاء أَقْيَسُ، والواوُ أعمُّ، تشبيهاً بالسَّنوات. وقال الأزهريُّ[٢]: يقال: هذه شَفَةٌ ـ في الوصل ـ وشَفَهٌ، بالتاء والهاء.

وقال قتادة: نِعَمُ الله ظاهرةٌ، يقرِّرك بها حتى تشكر[٣].

قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾

يعني الطريقين: طريق الخير وطريق الشرِّ. أي: بيَّناهما له بما أرسلنا من الرسُل. والنَّجْدُ: الطريقُ في ارتفاع. وهذا قولُ ابنِ عباسٍ وابنِ مسعودٍ وغيرهما[٤]. وروى قتادةُ قال: ذُكِر لنا أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول: «يا أيُّها الناسُ، إنَّما هما النَّجْدان: نجدُ الخيرِ، ونجدُ الشرِّ، فلِمَ تجعلُ نَجْدَ الشرِّ أحبَّ إليكَ من نَجْدِ الخير؟!»[٥].

---

(١) الوسيط ٤/ ٤٩٠ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٩ ، وأخرجه بنحوه ابن عساكر في تاريخه ٦٦/ ٢٢٩ من طريق مكحول عن النبي ﷺ.

(٢) في تهذيب اللغة ٦/ ٨٦ ، وما قبله منه.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤١٥ .

(٤) تفسير الطبري ٢٤/ ٤١٥-٤١٨ ، وأخرجه عن ابن مسعود أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٣٧٤ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤١٨ ، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٧٤ ، والطبري ٢٤/ ٤١٧-٤١٨ من طريق الحسن عن النبي ﷺ.

ورُوي عن عكرمةَ قال: النَّجْدان: الثَّدْيان. وهو قولُ سعيد بنِ المسيِّب والضحَّاك، ورُوِي عن ابن عباس وعليٍّ رضي الله عنهما[١]؛ لأنهما كالطريقين لحياةِ الولدِ ورزْقِه. فالنَّجْدُ: العُلُوُّ، وجَمْعُه: نُجُود؛ ومنه سُمِّيَتْ «نجد»؛ لارتفاعها عن انخفاض تِهامةَ. فالنَّجْدان: الطَّريقان العاليان. قال امرؤ القيس:

فريقان منهم جازعٌ بَطْنَ نخلةٍ وآخَرُ منهم قاطِعٌ نَجْدَ كَبْكَبِ[٢]

قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾

أي: فهلَّا أنفق مالَه الذي يزعمُ أنه أنفقه في عداوة محمدٍ، هلَّا أَنفقه لاقتحامِ العَقَبةِ فيأمنَ! والاقتحامُ: الرَّمْيُ بالنفس في شيءٍ من غيرِ رَوِيَّةٍ؛ يقال منه: قَحَمَ في الأمر قُحوماً، أي: رَمَى بنفسه فيه من غير رَوِيَّةٍ. وقَحَّم الفَرَسُ فارسَه تَقْحيماً على وجهه: إذا رمَاه. وتَقْحيمُ النفسِ في الشيء: إدخالُها فيه من غير رَوِيةٍ. والقُحْمةُ بالضمِّ: المَهْلكةُ، والسنةُ الشديدة. يقال: أصابت الأعرابَ القُحْمةُ: إذا أصابهم قَحْطٌ، فدخلوا الرِّيف. والقُحَم: صِعابُ الطريق[٣].

وقال الفرَّاء والزَّجَّاج: وذكر «لا» مرةً واحدةً، والعربُ لا تكاد تُفْرِدُ «لا» مع الفعلِ الماضي في مثل هذا الموضع، حتى يُعيدوها في كلامٍ آخَرَ، كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١] ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]. وإنَّما

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٤١٩، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٩ عن ابن عباس والضحاك وسعيد بن المسيب. ولم نقف عليه عن علي ﷺ، وأخرج عنه الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٦٤، أن النجدين هما الخير والشر. وكذا أخرج الفريابي وعبد بن حميد عنه أنه قيل له: إن ناساً يقولون: إن النجدين الثديان، قال: الخير والشر. الدر المنثور ٦/ ٣٥٣.

(٢) ديوان امرئ القيس ص٤٣. قوله: جازع بطن نخلة، يعني بستانَ ابن معمر، وهو مجتمعٌ لواديين؛ نخلةِ الشامية، ونخلةِ اليمانية، وكبكب: اسم جبل. يعني: افترق الحيان بعد انقضاء المرتبع الذي كان يجمعهم، ورجع كل حيٍّ إلى مائه وموضع إقامته، فكانوا فرقتين، فمنهم آخذٌ سُفْلاً، ومنهم آخِذٌ عُلُوًّا. ينظر شرح الديوان، ومعجم البلدان ١/ ٤١٤ و٥/ ٢٧٧.

(٣) الصحاح (قحم).

أَفْرَدوها لدلالةِ آخِرِ الكلامِ على معناه؛ فيجوزُ أن يكون قوله: «ثم كان من الذين آمنوا» قائماً مقامَ التكرير، كأنه قال: فلا اقتحَمَ العقبةَ ولا آمَن[١]. وقيل: هو جارٍ مجرى الدعاء، كقوله: لا نَجا ولا سَلِم.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ قال سفيان بن عُيينة: كلُّ شيءٍ قال فيه: «وما أدراك» فإنه أخْبَر به، وكلُّ شيءٍ قال فيه: «وما يدريك» فإنه لم يُخْبِر به[٢]. وقال: معنى «فلا اقتحم العقبة»، أي: فلم يقتحم العقبةَ، كقول زُهَير:

وكان طَوَى كَشْحاً على مُسْتكِنَّةٍ فلا هو أبداها ولَمْ يَتَقَدَّمِ[٣]

أي: فلَمْ يُبْدِها ولم يتقدَّم. وكذا قال المبرِّد وأبو عليٍّ[٤]: «لا» بمعنى لم. وذكره البخاريُّ[٥] عن مجاهد. أي: فلم يقتحم العقبةَ في الدنيا، فلا يحتاجُ إلى التكرير. ثم فَسَّر العقبةَ وركوبَها فقال: «فَكُّ رَقَبةٍ» وكذا وكذا، فبيَّن وجوهاً من القُرَبِ المالية.

وقال ابن زيد وجماعةٌ من المفسِّرين: معنى الكلامِ الاستفهامُ الذي معناه الإنكار، تقديره: أفَلا اقْتَحم العقبة، أو هلَّا اقتحمَ العقبة. يقول: هلَّا أنفق مالَه في فكِّ الرقاب، وإطعام السَّغْبان؛ ليُجاوِزَ به العقبةَ، فيكون خيراً له من إنفاقه في عداوةِ محمدٍ ﷺ[٦].

ثم قيل: اقتحامُ العقبةِ هاهنا ضربُ مَثَلٍ، أي: هلَّا[٧] تَحَمَّلَ عِظامَ الأمورِ في

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٤-٢٦٥، وللزجاج ٥/ ٣٢٩، وتفسير الطبري ٢٤/ ٤٢١.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٩٠، وسلف ٢١/ ١٨٩ و ص٢٠٤ من هذا الجزء.

(٣) ديوان زهير ص٢٢. قال الشارح: الكشح: الخاصرة. على مستكنة: على أمر أكَنَّه في نفسه، يقال: طوى كشحه على كذا، أي: لم يُظْهِره.

(٤) هو الفارسي، وقوله في تفسير الرازي ٣١/ ١٨٥.

(٥) في صحيحه، قبل الحديث (٤٩٤٢).

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤٨٩، وأخرجه بنحوه عن ابن زيد الطبري ٢٤/ ٤٢١. والسغبان: الجائع. القاموس (سغب).

(٧) في (م): هل.

إنفاقِ مالِه في طاعةِ ربِّه، والإيمانِ به. وهذا إنَّما يليقُ بقولِ مَن حَمَلَ «فلا اقتحَمَ العَقَبَةَ» على الدعاء، أي: فلا نَجا ولا سَلِمَ مَن لم يُنفِقْ مالَه في كذا وكذا.

وقيل: شبَّه عِظَمَ الذنوبِ وثِقلَها وشدَّتَها بعقبةٍ، فإذا أعتق رقبةً وعَمِلَ صالحاً، كان مَثَلُه كَمَثلِ مَن اقتحم العقبةَ، وهي الذنوبُ التي تَضرُّه وتُؤذيه وتُثْقِلُه.

وقال ابن عمر: هذه العقبةُ جبلٌ في جهنَّم[(١)].

وعن أبي رجاءٍ قال: بَلَغنا أنَّ العقبةَ مَصْعَدُها سبعةُ آلافِ سنةٍ، ومَهْبِطُها سبعةُ آلافِ سنةٍ[(٢)].

وقال الحسن وقتادةُ: هي عقبةٌ شديدةٌ في النار دونَ الجِسْرِ، فاقْتَحِمُوها بطاعةِ الله[(٣)].

وقال مجاهدٌ والضحَّاك والكلبيُّ: هي الصِّراطُ يُضرَبُ على جهنَّم كحدِّ السيف، مسيرة ثلاثةِ آلافِ سنةٍ، سَهْلاً وصُعوداً وهُبوطاً[(٤)]. واقتحامُه على المؤمن كما بَيْنَ صلاةِ العصرِ إلى العشاء. وقيل: اقتحامُه عليه قدر ما يصلِّي صلاةَ المكتوبة[(٥)].

وروي عن أبي الدَّرْداءِ أنه قال: إنَّ وراءَنا عقبةً، أَنْجَى الناسِ منها أخفُّهم حِمْلاً[(٦)].

وقيل: النارُ نفسُها هي العقبةُ؛ فروى أبو رجاءٍ عن الحسن قال: بلغنا أنه ما من مسلم يُعتقُ رقبةً إلَّا كانت فداءَه من النار[(٧)]. وعن عبد الله بن عمر قال: مَن أَعْتَقَ رقبةً

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ٣٢٦ بلفظ: جبلٌ زلالٌ في جهنم، وبنحوه في تفسير الطبري ٢٤/ ٤٢٠ .

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم، كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٥٤ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٩٠ ، وأخرجه عنهما بنحوه الطبري ٢٤/ ٤٢٠ .

(٤) ذكره عنهم البغوي ٤/ ٤٨٩-٤٩٠ مطولاً.

(٥) ينظر ما سلف ١٣/ ٤٩٤ .

(٦) أخرجه ابن مردويه بنحوه من حديث أبي الدرداء ﷺ مرفوعا، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٥ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٢٢ .

أَعْتَقَ الله عزَّ وجلَّ بكلِّ عضوٍ منها عضواً منه.

وفي «صحيح» مسلمٍ عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، قال: «مَن أَعْتَقَ رقبةً أَعْتَقَ الله بكلِّ عضوٍ منها عضواً من أعضائه من النار، حتى فَرْجَه بفَرْجِه»(١).

وفي الترمذيِّ عن أبي أمامةَ وغيرِهِ من أصحاب النبيِّ ﷺ قال: «أيُّما امرئٍ مُسْلِمٍ أعتقَ امرأً مُسْلِماً، كان فَكَاكَهُ من النار، يَجزي كلُّ عضوٍ منه عضواً منه، وأيُّما امرأةٍ مسلمةٍ أعتقتِ امرأةً مُسلمةً، كانت فَكاكَها من النار، يَجزي كلُّ عضوٍ منها عضواً منها». قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب(٢).

وقيل: العقبةُ: خلاصُه من هَوْلِ العَرْض. وقال قتادةُ وكعب: هي نارٌ دون الجسر(٣).

وقال الحسن: هي واللهِ عقبةٌ شديدةٌ: مجاهدةُ الإنسانِ نفسَه وهواه وعدوَّه الشيطان(٤). وأنشد بعضهم:

إنِّي بُلِيتُ بأربعٍ يَرْمِينَني ... بالنَّبْلِ قد نَصَبوا عَليَّ شِرَاكا
إبليسُ والدنيا ونفسي والهوى ... مِن أين أرجو بينهنَّ فَكَاكا
يا ربِّ ساعِدْني بعفوٍ إنَّني ... أصبحتُ لا أرجو لهنَّ سِواكا

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢﴾

فيه حذفٌ، أي: وما أدراك ما اقتحامُ العقبة. وهذا تعظيمٌ لالتزامِ أمرِ الدِّين، والخطابُ للنبيِّ ﷺ، ليعلِّمه اقتحامَ العقبة. قال القشيريُّ: وحَمْلُ العقبةِ على عَقَبةِ جهنَّم بعيدٌ؛ إذ أحدٌ في الدنيا لم يقتحم عقبةَ جهنَّم، إلَّا أنْ يُحملَ على أنَّ المرادَ:

(١) صحيح مسلم (١٥٠٩)، وهو عند أحمد (٩٤٤١)، والبخاري (٦٧١٥).

(٢) سنن الترمذي (١٥٤٧).

(٣) أخرجه عن قتادة الطبري ٢٤/ ٤٢٠، وسلف عنه بنحوه قريباً.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٥٦، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٢٦.

فهلّا صَيَّر نفسَه بحيث يُمكِنُه اقتحامُ عقبةِ جهنَّمَ غداً.

واختار البخاريُّ قولَ مجاهدٍ: إنه لم يقتحم العقبةَ في الدنيا. قال ابن العربيّ[١]: وإنَّما اختار ذلك لأجْلِ أنه قال بعد ذلك في الآيةِ الثانيةِ: «وما أدراكَ ما العَقَبةُ»، ثم قال في الآيةِ الثالثة: «فَكُّ رَقَبةٍ»، وفي الآية الرابعة: «أوْ إطْعامٌ في يومٍ ذي مَسْغَبةٍ»، ثم قال في الآية الخامسة: «يتيماً ذا مَقْرَبةٍ»، ثم قال في الآيةِ السادسةِ: «أو مسكيناً ذا مَتْرَبةٍ»، فهذه الأعمالُ إنَّما تكون في الدنيا. المعنى: فلم يأتِ في الدنيا بما يُسَهِّل عليه سلوكَ العقبةِ في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ فكُّها: خلاصُها من الأسْرِ. وقيل: من الرِّقّ. وفي الحديث: «وفكُّ الرقبةِ أنْ تُعينَ في ثَمَنِها» من حديث البرَاء، وقد تقدَّم في سورة براءة[٢]. والفكُّ: هو حَلُّ القيدِ، والرِّقُّ قَيْدٌ. وسمِّي المرقوقُ رَقَبةً؛ لأنه بالرِّق كالأسيرِ المربوطِ في رقبته[٣]. وسُمِّي عتقُها فَكًّا [لأنه] كَفَكِّ الأسيرِ من الأسر؛ قال حسان:

كَمْ من أسيرٍ فَكَكْناه بلا ثَمَنٍ ... وجَزِّ ناصيةٍ كنَّا مَواليها[٤]

وروى عُقبةُ بنُ عامرٍ الجهنيُّ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن أَعْتَقَ رقبةً مؤمنةً كانت فداءَه من النار»[٥].

---

(١) في أحكام القرآن ٤/١٩٢٦-١٩٢٧ ، وينظر صحيح البخاري قبل الحديث (٤٩٤٢).

(٢) ١٠/٢٦٩ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٩٢٦ .

(٤) ديوان حسان ص٤٨٥ ، والكلام من النكت والعيون ٦/٢٧٩ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) أخرجه أحمد (١٧٣٢٦) و(١٧٣٥٧). ونقله المصنف عن الماوردي في النكت والعيون ٦/٢٧٩ .

قال الماوَرْدِيُّ[١]: ويحتمِلُ ثانياً: أنه أراد فكَّ رقبتِه وخلاصَ نفسِه، باجتناب المعاصي، وفِعْلِ الطاعات، ولا يمتنع[٢] الخبرُ من هذا التأويل، وهو أشبهُ بالصَّواب.

الثانية: قوله تعالى: ﴿رَقَبَةٍ﴾ قال أصبَغُ: الرقبةُ الكافرةُ ذاتُ الثَّمنِ أفضلُ في العِتق من الرقبةِ المؤمنةِ القليلةِ الثَّمنِ؛ لقول النبيِّ ﷺ وقد سُئل: أيُّ الرقابِ أفضلُ؟ قال: «أغلاها ثمناً، وأنفسُها عند أهلها»[٣]. ابن العربيِّ[٤]: والمرادُ في هذا الحديثِ: مِن المسلمين. بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: «مَن أعْتَقَ امرأً مُسْلماً» و«مَن أعتقَ رقبةً مُؤمِنةً». وما ذكره أصبغُ وَهْلَةٌ[٥]، وإنَّما نَظَرَ إلى تنقيص المال، والنظرُ إلى تجريد المعتَقِ للعبادة، وتفريغِه للتوحيد، أَوْلَى.

الثالثة: العِتْقُ والصَّدقةُ من أفضل الأعمال. وعن أبي حنيفةَ: أنَّ العتقَ أفضلُ من الصدقة. وعند صاحبيه الصدقةُ أفضلُ. والآيةُ أدلُّ على قولِ أبي حنيفةَ؛ لتقديم العتقِ على الصدقة. وعن الشعبيِّ في رجلٍ عنده فَضْلُ نفقةٍ: أيضَعُه في ذي قرابةٍ، أو يعتقُ رقبةً؟ قال: الرقبةُ أفضلُ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن فكَّ رقبةً فكَّ الله بكلِّ عضوٍ منها عضواً من النار»[٦].

قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ أي: مَجاعةٍ. والسَّغَبُ: الجوع.

---

(١) في النكت والعيون ٦/ ٢٧٩ .

(٢) في النكت والعيون: ولا يمنع.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٢٧ ، والحديث أخرجه أحمد (٢١٣٣١)، والبخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٨٤) عن أبي ذر ﷺ، وسلف ١٠/ ٥٨ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٢٨ .

(٥) أي: سهو وغلط، وَهَل فلان: سَها، ووَهِل عنه: غلط فيه ونسيه. المعجم الوسيط (وهل).

(٦) الكشاف ٤/ ٢٥٦ ، وسلف الحديث عند تفسير الآية (١١) من هذه السورة.

والساغبُ: الجائع. وقرأ الحسن: «أو إطعامٌ في يومٍ ذا مَسْغَبةٍ» بالألف في «ذا»(١). وأنشد أبو عبيدة(٢):

فلَوْ كنتَ جاراً يا ابنَ قيس بنِ عاصمٍ لَمَا بِتَّ شَبْعاناً وجارُك ساغِبَا(٣)

وإطعامُ الطعامِ فضيلةٌ، وهو مع السَّغَبِ الذي هو الجوعُ أفضلُ. وقال النَّخَعيُّ في قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ قال: في يومٍ عزيزٍ فيه الطعامُ(٤). ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مِن مُوْجِباتِ الرَّحمةِ إطعامُ المُسْلِمِ السَّغْبان»(٥).

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي: قَرابةٍ. يقال: فلانٌ ذو قَرابتي وذو مَقْرَبتي. يعلِّمك أنَّ الصَّدقةَ على القرابة أفضلُ منها على غيرِ القرابة، كما أنَّ الصَّدقة على اليتيم الذي لا كافلَ له أفضلُ من الصدقة على اليتيم الذي يجدُ مَن يَكْفلُه.

وأهلُ اللغةِ يقولون: سُمِّي يتيمًا لضَعْفِه. يقال: يَتُمَ الرجلَ يُتْماً: إذا ضَعُفَ. وذَكَروا أنَّ اليَتيمَ في الناس مِن قِبَلِ الأب، وفي البهائم مِن قِبَلِ الأمهات. وقد مضى في سورة البقرة مُستوفًى(٦)، وقال بعضُ أهلِ اللغةِ: اليتيمُ الذي يموتُ أبواه. وقال قيس بن الملوِّح:

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٤، والمحتسب ٢/ ٣٦٢، وستأتي.

(٢) في (ط): عبيد.

(٣) ذكره السمعاني في تفسيره ٦/ ٢٣٠ برواية: ساغبُ.

(٤) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٥.

(٥) أخرجه الحاكم ٢/ ٥٢٤، والبيهقي في الشعب (٣٣٦٥) من طريق محمد بن المنكدر عن جابر ﷺ، وفي إسناده طلحة بن عمرو المكي، ضعفه ابن معين وغيره، وقال أحمد والنسائي: متروك، وقال البخاري وابن المديني: ليس بشيء. الميزان ٢/ ٣٤٠.

وأخرجه البيهقي في الشعب (٣٣٦٣) بإسناد آخر عن محمد بن المنكدر قوله، و(٣٣٦٤) عن محمد بن المنكدر عن النبي ﷺ مرسلاً. وأخرجه هناد في الزهد (٦٣٤) عن مجاهد قوله.

(٦) ٢/ ٢٢٩ - ٢٣٠.

إلى اللهِ أشكو فقدَ لَيْلَى كما شَكا إلَى اللهِ فَقْدَ الوالِدَيْنِ يَتِيمُ[١]

قوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي: لا شيءَ له، حتى كأنه قد لَصِقَ بالتُّراب من الفقر، ليس له مَأوًى إلَّا الترابُ. وقال ابن عباس: هو المطروحُ على الطريق، الذي لا بيتَ له. مجاهد: هو الذي لا يَقيه من التراب لِباسٌ ولا غيرُه. وقال قتادةُ: إنَّه ذو العيال[٢].

عكرمةُ: المديون. أبو سنان: ذُو الزَّمانَةِ. ابن جبير: الذي ليس له أحد. وروى عكرمةُ عن ابن عباس: ذو المَتْرَبَةِ: البعيدُ التُّرْبةِ، يعني الغريب البعيد عن وطنه[٣].

وقال أبو حامد الخارْزَنْجِيُّ: المَتْرَبةُ هنا: من التَّرِيب، وهي شدَّةُ الحالِ؛ يقال: تَرِبَ، إذا افتقرَ. قال الهُذَليُّ:

وكُنَّا إذا ما الضيفُ حَلَّ بأرْضِنا سَفَكْنا دِماءَ البُدْنِ في تُرْبةِ الحالِ[٤]

وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو والكسائيُّ: «فَكَّ» بفتحِ الكاف على الفعل الماضي، «رقبةً» نَصْباً لكونها مفعولاً، «أو أطْعَمَ» بفَتْحِ الهمزةِ ونَصْبِ الميم، من غيرِ ألف، على الفعل الماضي أيضاً؛ لقوله: «ثم كان مِن الذين آمنوا»، فهذا أَشْكَلُ بـ«فكَّ» و«أطْعمَ».

وقرأ الباقون: «فَكُّ» رفعاً على أنَّه مصدرُ فَكَكْتُ، «رقبةٍ» خفض بالإضافة، «أو إطعامٌ» بكَسْرِ الهمزة وألفٍ ورفعِ الميم وتَنوينِها، على المصدر أيضاً[٥]. واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأنه تفسيرٌ لقوله تعالى: «وما أدْرَاكَ ما العَقَبةُ»، ثم أخْبَره فقال:

---

(١) ديوان مجنون ليلى ص٢٤٤ .

(٢) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٧٩ ، وأخرجها الطبري ٢٤/ ٤٢٦ - ٤٣٠ .

(٣) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٧٩ ، وخبر ابن عباس أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٥ .

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٥٩٣ ، واللسان (حول) دون نسبة. قال ابن هشام: يعني بالحال: الطين الذي يخالطه الرمل.

(٥) السبعة ص٦٨٦ ، والتيسير ص٢٢٣ .

«فَكُّ رَقَبةٍ. أو إطْعَامٌ». المعنى: اقتحامُ العقبةِ: فكُّ رقبةٍ أو إطعامٌ. ومَن قرأ بالنَّصب فهو محمولٌ على المعنى، أي: ولا فَكَّ رقبةً، ولا أطعمَ في يومٍ ذي[١] مَسْغَبة، فكيف يُجاوِزُ العَقَبة.

وقرأ الحسن وأبو رَجاء: «ذا مَسْغبةٍ» بالنَّصب على أنه مفعولُ «إطعامٌ»، أي: يُطْعِمون ذا مَسْغَبةٍ، و«يَتيماً» بدلٌ منه. الباقون: «ذِي مَسْغَبةٍ»، فهو صفةٌ لـ«يومٍ». ويجوزُ أنْ تكونَ قراءةُ النَّصْبِ صفةً لموضعِ الجارِّ والمجرور؛ لأنَّ قوله: «في يومٍ» ظَرْفٌ منصوبُ الموضعِ، فيكونُ وصفاً له على المعنى دونَ اللَّفْظ[٢].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني: أنَّه لا يقتحمُ العقبةَ مَن فكَّ رقبةً، أو أطعمَ في يومٍ ذي[٣] مَسْغَبةٍ، حتى يكون مِن الذين آمنوا، أي: صدَّقوا، فإنَّ شَرْطَ قَبولِ الطاعاتِ الإيمانُ بالله. فالإيمانُ بالله بَعْدَ الإنفاقِ لا ينفعُ، بل يجبُ أن تكونَ الطاعةُ مصحوبةً بالإيمان، قال الله تعالى في المنافقين: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤]. وقالت عائشة: يا رسولَ الله، إنَّ ابنَ جُدْعَانَ كان في الجاهلية يَصِلُ الرَّحِمَ، ويُطْعِمُ الطعامَ، ويَفُكُّ العانيَ، ويُعتقُ الرقابَ، ويحملُ على إبله لله، فهل ينفعُه ذلك شيئاً؟ قال: «لا، إنَّه لم يَقُلْ يوماً: ربِّ اغفرْ لي خطيئتي يومَ الدِّين»[٤].

وقيل: «ثُمَّ كانَ مِن الذينَ آمَنوا» أي: فَعَلَ هذه الأشياءَ وهو مؤمنٌ، ثم بقي على

(١) في (م): ذا.
(٢) المحتسب ٢/ ٣٦٢، وسلفت القراءة في بداية تفسير هذه الآية.
(٣) في (م): ذا.
(٤) أخرجه أحمد (٢٤٦٢١)، ومسلم (٢١٤) من حديث عائشة رضي الله عنها، وسلف ١٦/ ٤٠.

إيمانه حتى الوفاةِ، نظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

وقيل: المعنى: ثم كان من الذين يؤمنون بأنَّ هذا نافعٌ لهم عند الله تعالى.

وقيل: أتَى بهذه القُرَبِ لوجهِ الله، ثم آمَنَ بمحمدٍ ﷺ؛ وقد قال حكيم بنُ حزام بعدَ ما أسْلَم: يا رسول الله، إنَّا كنَّا نَتَحنَّثُ بأعمالٍ في الجاهلية، فهل لنا منها شيءٌ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أسْلَمْتَ على ما أسْلَفْتَ من الخير»[1].

وقيل: إنَّ «ثم» بمعنى الواو، أي: وكان هذا المُعْتِقُ الرقبةَ، والمُطْعِمُ في المسغبة، من الذين آمنوا. ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ أي: أوْصَى بعضُهم بعضاً ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ على طاعة الله، وعن معاصيه، وعلى ما أصابهم من البلايا والمصائب ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ أي: بالرَّحمة على الخَلْق؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك رَحِموا اليتيمَ والمسكين.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ أي: الذين يُؤْتَوْنَ كتبَهم بأيمانهم؛ قاله محمد بن كعب القُرَظيُّ وغيرُه. وقال يحيى بن سلام: لأنهم ميامينُ على أنفسهم. زيد بن أسلم: لأنهم أُخِذوا من شِقِّ آدمَ الأيمنِ. وقيل: لأنَّ منزلتهم عن اليمين؛ قاله مَيمون بن مِهران.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: القرآن. ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أي: يأخذون كُتُبَهم بشَمائلهم؛ قاله محمد بن كعب. يحيى بن سلام: لأنَّهم مَشائيمُ على أنفسهم. زيد بن أسلم[2]: لأنهم أُخِذوا من شِقِّ آدمَ الأيسرِ. ميمون: لأنَّ منزلتهم عن اليسار.

قلت: ويجمعُ هذه الأقوالَ أن يُقال: إنَّ أصحاب الميمنةِ أصحابُ الجنةِ، وأصحابَ المَشأمةِ أصحابُ النارِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٧-٢٨] وقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤١-٤٢]. وما كان مِثْلَه.

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٣١٨)، والبخاري (١٤٣٦)، ومسلم (١٢٣)، وسلف ١٠/ ٢٣٧، والتحنث: التعبُّد.

(٢) وقع في النسخ: ابن زيد، بدل: زيد بن أسلم، في الموضعين، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٢٨٠، والكلام منه، وسلف هذا القول عن زيد بن أسلم في تفسير الآية (٨) من سورة الواقعة.

ومعنى ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي: مُطْبَقة مُغْلَقَة، قال:

تَحِنُّ إلى أجبالِ مكةَ ناقَتي ومِن دُونِها أبوابُ صنعاءَ مُؤصَدَهْ[1]

وقيل: مُبْهمة، لا يُدْرَى ما داخِلُها. وأهلُ اللُّغةِ يقولون: أوْصَدْتُ البابَ وآصدْتُهُ، أي: أغلقتُه. فَمَن قال: أوْصَدْتُ، فالاسمُ الوِصاد، ومَن قال: آصْدْتُه، فالاسمُ الإصاد.

وقرأ أبو عمرو وحفصٌ وحمزةُ ويعقوبُ، والشَّيزَريُّ عن الكسائيِّ: «مُؤصَدَة» بالهَمْزِ هنا وفي «الهُمَزة»[2]. الباقون بلا هَمْزٍ. وهما لُغتان. وعن أبي بكر بن عياش قال: لنا إمامٌ يهمزُ «مُؤصَدَة»، فأشْتَهي أنْ أسُدَّ أذنيَّ إذا سمعتُه[3].

تفسير سورة البلد

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) ﴾ .

هذا قسم من الله عز وجل (١) بمكة أم القرى فى حال كون الساكن فيها حالا ؛ لينبه على عظمة قَدرها فى حال إحرام أهلها .

قال خَصِيف ، عن مجاهد : ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ : لا رد عليهم ؛ أقسم بهذا البلد .

وقال شَبيب بن بشر ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس : ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ يعنى : مكة، ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ قال : أنت ــ يا محمد ــ يحل لك أن تقابل به . وكذا رُوى عن سعيد بن جُبير، وأبى صالح ، وعطية، والضحاك ، وقتادة ، والسدى ، وابن زيد .

وقال مجاهد : ما أصبت فيه فهو حلال لك .

وقال قتادة : ﴿ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ قال : أنت به من غير حَرَج ولا إثم .

وقال الحسن البصرى : أحلها الله له ساعة من نهار .

وهذا المعنى الذى قالوه قد وَرَد به الحديث المتفق على صحته : « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حَرَامٌ بحُرمَة الله إلى يوم القيامة ، لا يُعضَد شجره ولا يختلى خلاه . وإنما أحلت لى ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب» . وفى لفظ [آخر] (٢) : « فإن أحد تَرَخَّص بقتال رسول الله فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم » (٣) .

وقوله: ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾: قال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا ابن عطية ، عن شريك، عن خَصِيف ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله:﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ : الوالد : الذى يلد ، وما ولد: العاقر الذى لا يولد له .

---

(١) فى أ : « تعالى » . (٢) زيادة من م .

(٣) الحديث فى صحيح البخارى برقم (١٠٤، ١٠٥، ١٨٣٢، ٤٢٩٥) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رضى الله عنه.

ورواه [ابن جرير و] (١) ابن أبى حاتم ، من حديث شريك ــ وهو ابن عبد الله القاضى ــ به .

وقال عكرمة : الوالد : العاقر ، وما ولد : الذى يلد . رواه ابن أبى حاتم .

وقال مجاهد ، وأبو صالح ، وقتادة ، والضحاك ، وسفيان الثورى ، وسعيد بن جبير ، والسدى ،والحسن البصرى،وخُصيف،وشرحبيل بن سعد وغيرهم:يعنى بالوالد آدم ،وما ولد ولده .

وهذا الذى ذهب إليه مجاهد وأصحابه حَسَنٌ قوى ؛ لأنه تعالى لما أقسم بأم القرى وهى المساكن أقسم بعده بالساكن ، وهو آدم أبو البشر وولده .

وقال أبو عمران الجونى : هو إبراهيم وذريته . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم .

واختار ابن جرير أنه عام فى كل والد وولده . وهو محتمل أيضا .

وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِى كَبَدٍ﴾ : رُوى عن ابن مسعود،وابن عباس ، وعكرمة، ومجاهد، وإبراهيم النخعى ، وخَيْثَمة ، والضحاك ، وغيرهم : يعنى منتصبا ــ زاد ابن عباس فى رواية عنه ــ فى (٢) بطن أمه .

والكبد : الاستواء والاستقامة . ومعنى هذا القول : لقد خلقنا الإنسان سويا مستقيما كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الإنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [الانفطار:٦،٧]، وكقوله : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين:٤] .

وقال ابن [أبى نجيحُ] (٣) جريج وعطاء(٤)، عن ابن عباس : فى كبد ، قال : فى شدّة خُلق، ألم تر إليه . . . وذكر مولده ونبات أسنانه .

قال مجاهد : ﴿ فِى كَبَدٍ ﴾ : نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة يتكبد فى الخلق ــ قال مجاهد : وهو كقوله : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ [الأحقاف:١٥]، وأرضعته كرها ، ومعيشته كره ، فهو يكابد ذلك.

وقال سعيد بن جبير : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِى كَبَدٍ ﴾ : فى شدة وطَلَب معيشة . وقال عكرمة : فى شدة وطول . وقال قتادة : فى مشقة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عصام ، حدثنا أبو عاصم ، أخبرنا عبد الحميد بن جعفر ، سمعت محمد بن على أبا جعفر الباقر سأل رجلا من الأنصار عن قول الله :﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِى كَبَدٍ﴾ قال : فى قيامه واعتداله . فلم يُنكر عليه أبو جعفر .

وروى من طريق أبى مودود: سمعت الحسن قرأ هذه الآية : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِى كَبَدٍ ﴾ قال:يكابد أمرا من أمر الدنيا ،وأمرا من أمر الآخرة ــ وفى رواية :يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة .

---

(١) زيادة من أ . (٢) فى م ، أ : « منتصبا فى » . (٣) زيادة من م .
(٤) فى م ، أ : « عن عطاء » .

وقال ابن زيد : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ قال : آدم خلق فى السماء ، فسُمى ذلك الكَبَد.

واختار ابن جرير أن المراد [بذلك] (١) مكابدة الأمور ومشاقها .

وقوله : ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴾ : قال الحسن البصرى : يعنى أيحسب أن لن يقدر عليه أحد يأخذ ماله .

وقال قتادة : ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴾ قال : ابن آدم يظن أن لن يُسأل عن هذا المال : من أين اكتسبه ؟ وأين أنفقه ؟

وقال السدى : ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴾ قال : الله عز وجل .

وقوله : ﴿ يقول أهلكت مالا لبدا ﴾ أى : يقول ابن آدم : أنفقت مالا لبدا ، أى : كثيرا . قاله مجاهد [والحسن] (٢) ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم .

﴿ أيحسب أن لم يره أحد ﴾ : قال مجاهد : أى أيحسب أن لم يره الله عز وجل . وكذا قال غيره من السلف .

وقوله : ﴿ ألم نجعل له عينين ﴾ أى : يبصر بهما ، ﴿ ولسانا ﴾ أى : ينطق به ، فيُعبر عما فى ضميره ، ﴿ وشفتين (٣) ﴾ يستعين بهما على الكلام وأكل الطعام ، وجمالاً لوجهه وفمه .

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبى الربيع الدمشقى ، عن مكحول قال: قال النبى ﷺ: « يقول الله تعالى : يا ابن آدم ، قد أنعمت عليك نعماً عظاما لا تحصى عددها ولا تطيق شكرها ، وإن مما أنعمت عليك أن جعلت لك عينين تنظر بهما ، وجعلت لهما غطاءً ، فانظر بعينيك إلى ما أحللت لك ، وإن رأيت ما حرمت عليك فأطبق عليهما غطاءهما . وجعلت لك لسانا ، وجعلت له غلافا ، فانطق بما أمرتك وأحللتُ لك ، فإن عَرَض لك ما حرمت عليك فأغلق عليك لسانك . وجعلت لك فرجا ، وجعلت لك سترا ، فأصب بفرجك ما أحللت لك ، فإن عَرَض لك ما حرمت عليك فَأَرْخِ عليك سترك . يا ابن آدم ، إنك لا تحمل سخطى ، ولا تطيق انتقامى » (٤) .

﴿وهديناه النجدين ﴾: قال سفيان الثورى، عن عاصم، عن زرّ، عن عبد الله ــ هو ابن مسعود ــ: ﴿ وهديناه النجدين ﴾ قال : الخير والشر . وكذا رُوى عن على ، وابن عباس ، ومجاهد، وعكرمة ، وأبى وائل ، وأبى صالح ، ومحمد بن كعب ، والضحاك ، وعطاء الخراسانى فى آخرين .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرنى ابن لَهيعة ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن سنان بن سعد ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « هما نجدان ، فما جعل نجد الشر أَحب إليكم من نجد الخير » (٥) .

---

(١) زيادة من م . (٢) زيادة من م ، أ . (٣) فى م : ﴿ ولسانا وشفتين ﴾ .

(٤) تاريخ دمشق (١٩/ ٤٦ « المخطوط ») .

(٥) ورواه ابن عدى فى الكامل (٣/ ٣٥٦) من طريق ابن وهب .

تفرد به سنان بن سعد ــ ويقال : سعد بن سنان ــ وقد وثقه ابن معين . وقال الإمام أحمد والنسائى والجوزجانى : منكر الحديث . وقال أحمد : تركت حديثه لاضطرابه . وروى خمسة عشر حديثا منكرة كلها ، ما أعرف منها حديثا واحدا . يشبه حديثه حديثَ الحسن ــ يعنى البصرى ــ لا يشبه حديثَ أنس .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، عن أبى رجاء قال : سمعت الحسن يقول: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ قال : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول : « يا أيها الناس ، إنهما النجدان ، نجد الخير ونجد الشر ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير » [(١)] .

وكذا رواه حبيب بن الشهيد ، ويونس بن عبيد ، وأبو وهب ، عن الحسن مرسلا . وهكذا أرسله قتادة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عصام الأنصارى ، حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، حدثنا عيسى ابن عقال [(٢)] ، عن أبيه ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ قال : الثديين .

وروى عن الربيع بن خُثَيم [(٣)] ، وقتادة وأبى [(٤)] حازم ، مثل ذلك . ورواه ابن جرير عن أبى كُرَيْب ، عن وكَيع ، عن عيسى بن عقَّال ، به . ثم قال : والصواب القول الأول .

ونظير هذه الآية قوله : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا . إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٢، ٣].

﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ (٢٠) ﴾ .

قال ابن جرير : حدثنى عمر بن إسماعيل بن مجالد ، حدثنا عبد الله بن إدريس ، عن أبيه ، عن عطية ، عن ابن عمر فى قوله : ﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ قال : جبل فى جهنم .

وقال كعب الأحبار : ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ : هو سبعون درجة فى جهنم . وقال الحسن البصرى: ﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ ، قال: عقبة فى جهنم . وقال قتادة : إنها قحمة شديدة فاقتحموها بطاعة الله عز وجل . وقال قتادة [(٥)] : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ . ثم أخبر عن اقتحامها فقال: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ . أَوْ إِطْعَامٌ ﴾ .

(١) تفسير الطبرى (٣٠/١٢٨) .

(٢) فى أ : « عفان » . (٣) فى أ : « خيثم » . (٤) فى م : « وابن » .

(٥) فى جميع النسخ : « وقال قتادة :وقوله ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾». وحذفنا « وقوله » ليستقيم المعنى. مستفادا من هامش ط . الشعب .

وقال ابن زيد : ﴿ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ أى : أفلا سلك الطريق التى فيها النجاة والخير . ثم بينها فقال: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَة . فَكُّ رَقَبَةٍ . أَوْ إِطْعَام ﴾ .

قرئ: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ بالإضافة، وقُرئ على أنه فعل ، وفيه ضمير الفاعل والرقبة مفعوله وكلتا [١] القراءتين معناهما متقارب .

قال الإمام أحمد :حدثنا على [٢] بن إبراهيم،حدثنا عبد الله ــ يعنى ابن سعيد [٣] بن أبى هند ــ عن إسماعيل بن أبى حكيم ــ مولى آل الزبير ــ عن سعيد بن مرجانة : أنه سمع أبا هُرَيرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرْب منها إربا منه من النار ، حتى إنه ليعتق باليد اليد ، وبالرجل الرجل ، وبالفرج الفرج » . فقال على بن الحسين : أنتَ سَمعتَ هذا من أبى هُرَيرة ؟ فقال سعيد : نعم . فقال على بن الحسين لغلام له ــ أفْرَهَ غلمانه ــ : ادعُ مطْرَفاً . فلما قام بين يديه قال : اذهب فأنت حُر لوجه الله.

وقد رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى،من طرق ، عن سعيد بن مرجانة ، به [٤]. وعند مسلم أن هذا الغلام الذى أعتقه على بن الحسين زين العابدين كان قد أعطى فيه عشرة آلاف درهم .

وقال قتادة ، عن سالم بن أبى الجعد ، عن مَعدانَ بن أبى طلحة ، عن أبى نَجيح [٥] قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « أيما مسلم أعتقَ رَجُلا مسلما ، فإن الله جاعلٌ وفاء كل عظم من عظامه عظماً من عظام محرره من النار ، وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة ، فإن الله جاعل وفاء كل عظم من عظامها عظما من عظامها من النار » .

رواه ابن جرير هكذا [٦] . وأبو نجيح هذا هو عمرو بن عَبَسَةَ السلمى ، رضى الله عنه .

قال الإمام أحمد : حدثنا حيوة بن شريح ، حدثنا بقية ،حدثنى بَحير بن سعد ، عن خالد بن معدان ، عن كثير بن مرة ، عن عمرو بن عَبَسَة [٧] : أنه حدثهم : أن النبى ﷺ قال : « من بنى مسجدا ليذكر الله فيه ، بنى الله له بيتا فى الجنة . ومن أعتق نفساً مسلمة ، كانت فديته من جهنم . ومن شاب شيبة فى الإسلام ، كانت له نورا يوم القيامة » [٨] .

طريق أخرى : قال أحمد : حدثنا الحكم بن نافع ، حدثنا حَريز ؛ عن سُليم بن عامر : أن شرحبيل بن السمط قال لعمرو بن عَبَسَة [٩] : حَدِّثنا حديثاً ليس فيه تَزَيّد ولا نسيان . قال عمرو : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أعتق رقبة مسلمة كانت فكاكه من النار ، عُضْوا بعضو . ومن

---

(١) فى م : « وكلا » . (٢) فى م : « حدثنا مكى » . (٣) فى م : « سعد » .
(٤) المسند (٢/ ٤٢٢) وصحيح البخارى برقم (٦٧١٥،٢٥١٧) وصحيح مسلم برقم (١٥٠٩) وسنن الترمذى برقم (١٥٤١) وسنن النسائى الكبرى برقم (٤٨٧٥) .
(٥) فى أ : « عن ابن أبى نجيح » .
(٦) تفسير الطبرى (١٢٩/٣٠) ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٤٨٧٩) من طريق قتادة .
(٧) فى أ : « ابن عنبسة » .
(٨) المسند (٣٨٦/٤) .
(٩) فى أ : « عنبسة » .

شاب شيبة فى سبيل الله ، كانت له نورا يوم القيامة ، ومن رمى بسهم فبلغ فأصاب أو أخطأ ، كان كمعتق رقبة من بنى إسماعيل » (١) .

وروى أبو داود ، والنسائى بعضه (٢) .

طريق أخرى : قال أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا الفرج ،حدثنا لقمان ، عن أبى أمامة ، عن عمرو بن عَبَسَةَ (٣) : قال السلمى(٤) : قلت له : حدثنا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ ليس فيه انتقاص ولا وَهم . قال: سمعته يقول : « من وُلد له ثلاثة أولاد فى الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحِنْثَ ، أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم ، ومن شاب شيبة فى سبيل الله كانت له نورا يوم القيامة ، ومن رَمى بسهم فى سبيل الله ، بلغ به العدو ، أصاب أو أخطأ ، كان له عتق رقبة . ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضوا منه من النار ، ومن أنفق زوجين فى سبيل الله، فإن للجنة ثمانية أبواب ، يدخله الله من أى باب شاء منها » (٥) .

وهذه أسانيد جيدة قوية ، ولله الحمد [والمنة] (٦) .

حديث آخر : قال أبو داود : حدثنا عيسى بن محمد الرملى ، حدثنا ضَمْرة ، عن ابن أبى عَبلَة، عن الغريف بن الديلمى قال : أتينا واثلة بن الأسقع فقلنا له : حدثنا حَديثا ليس فيه زيادة ولا نقصان. فغضب وقال: إن أحدكم ليقرأ ومصحفه معلق فى بيته ،فيزيد وينقص. قلنا :إنما أردنا حديثاً سمعتَه من رسول الله ﷺ .قال: أتينا رسول الله ﷺ فى صاحب لنا قد أوجب ــ يعنى النار ــ بالقتل ، فقال : « أعتقوا عنه يُعتق الله بكل عضو منه عضوا منه من النار » .

وكذا رواه النسائى من حديث إبراهيم بن أبى عَبلة ، عن الغَريف بن عياش الديلمى ، عن واثلة، به(٧) .

حديث آخر : قال أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا هشام ، عن قتادة ، عن قيس الجذامى ، عن عقبة بن عامر الجهنى: أن رسول الله ﷺ قال:« من أعتق رقبة مسلمة فهو فداؤه من النار » (٨).

وحدثنا عبد الوهاب الخفاف ، عن سعيد ، عن قتادة قال : ذُكِر أن قيسا الجذامى حَدّث عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال : « من أعتق رقبة مؤمنة فهى فكاكه من النار » (٩) .

تفرد به أحمد من هذا الوجه .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم وأبو أحمد قالا : حدثنا عيسى بن عبد

---

(١) المسند (٤/١١٣) .
(٢) سنن أبى داود برقم (٣٩٦٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (٤٨٨٥، ٤٨٨٦) .
(٣) فى أ : « عنبسة » . (٤) فى م : « السلمى قال » .
(٥) المسند (٤/ ٣٨٦) .
(٦) زيادة من أ .
(٧) سنن أبى داود برقم (٣٩٦٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (٤٨٩٠، ٤٨٩١) .
(٨) المسند (٤/ ١٥٠) .
(٩) المسند (٤/١٤٧) .

الرحمن البجلى ــ من بنى بجيلة ــ من بنى سليم ــ عن طلحة ــ قال أبو أحمد : حدثنا طلحة بن مصرف ــ عن عبد الرحمن بن عوسجة ، عن البراء بن عازب قال : جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، علمنى عملا يدخلنى الجنة . فقال : « لئن كنت أقصرتَ الخطبة لقد أعرضت المسألة . أعتق النسمة ، وفك الرقبة » . فقال : يا رسول الله ، أو ليستا بواحدة ؟ قال : « لا ، إن عتق النسمة أن تنفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين فى عتقها . والمنحة الوكوف ، والفىء على ذى الرحم الظالم ؛ فإن لم تُطق ذلك فأطعم الجائعَ ، واسقِ الظمآن ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من الخير »[١] .

وقوله : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾: قال ابن عباس : ذى مجاعة . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وغير واحد . والسَّغَب : هو الجوع .

وقال إبراهيم النَّخَعِى : فى يومٍ الطعامُ فيه عزيزٌ .

وقال قتادة : فى يوم يُشتهى فيه الطعام .

وقوله : ﴿ يَتِيماً ﴾ أى : أطعم فى مثل هذا اليوم يتيما ، ﴿ ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ أى : ذا قرابة منه . قاله ابن عباس، وعكرمة، والحسن، والضحاك ،والسدى .كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد :

حدثنا يزيد ، أخبرنا هشام ، عن حفصة بنت سيرين ،عن سليمان بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الصدقة على المسكين [٢] صدقة ، وعلى ذى الرحم اثنتان ، صدقة وصلة » .

وقد رواه الترمذى والنسائى [٣] ، وهذا إسناد صحيح .

وقوله : ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ أى : فقيرا مُدقعاً لاصقا بالتراب ، وهو الدقعاء أيضا .

قال ابن عباس : ﴿ ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ هو المطروح فى الطريق [٤]، الذى لا بيت له ، ولا شىء يقيه من التراب ــ وفى رواية : هو الذى لصق بالدقعاء من الفقر والحاجة ، ليس له شىء ــ وفى رواية عنه : هو البعيد التربة .

قال ابن أبى حاتم : يعنى الغريب عن وطنه .

وقال عكرمة : هو الفقير المديون المحتاج .

وقال سعيد بن جبير : هو الذى لا أحد له .

وقال ابن عباس ، وسعيد ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان : هو ذو العيال .

وكل هذه قريبة المعنى .

وقوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا [٥] ﴾ أى : ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة [٦] ،

---

(١) المسند (٤/٢٩٩) .

(٢) فى أ : « على المسلمين » .

(٣) المسند (٤/٢١٤) وسنن الترمذى برقم (٦٥٨) وسنن النسائى (٥/٩٢) وقال الترمذى : « حديث سلمان بن عامر حديث حسن » .

(٤) فى م : « بالطريق » . (٥) فى م : « آمنوا وعملوا الصالحات » . (٦) فى أ : « الظاهرة » .

مؤمنٌ بقلبه ، محتسب ثواب ذلك عند الله عز وجل . كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء:١٩] وقال : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ الآية [(١)] [النحل:٩٧] .

وقوله : ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ أى : كان من المؤمنين العاملين صالحا ، المتواصين بالصبر على أذى الناس ، وعلى الرحمة بهم . كما جاء فى الحديث : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » [(٢)] . وفى الحديث الآخر : « لا يَرْحَم اللهُ من لا يَرْحَم الناس» [(٣)] .

وقال أبو داود :حدثنا [أبو بكر] [(٤)] بن أبى شيبة ، حدثنا سفيان ، عن ابن أبى نَجيح ، عن ابن عامر[(٥)]، عن عبد الله بن عَمْرو ــ يرويه ــ قال : « من لم يَرْحم صغيرنا ويَعْرِف حَقَّ كبيرنا ،فليس منا » [(٦)] .

وقوله : ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ أى : المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين .

ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ أى : أصحاب الشمال ، ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أى : مطبقة عليهم ، فلا محيد لهم عنها ، ولا خروج لهم منها .

قال أبو هريرة ، وابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، ومحمد بن كعب القرظى ، وعطية العوفى ، والحسن ، وقتادة ، والسدى : ﴿ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أى : مطبقة ــ قال ابن عباس : مغلقة الأبواب . وقال مجاهد : أصد الباب بلغة قريش : أى أغلقه .

وسيأتى فى ذلك حديث فى سورة : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ .

وقال الضحاك :﴿ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ : حيط لا باب له .

وقال قتادة : ﴿ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ : مطبقة فلا ضوء فيها ولا فُرَج ، ولا خروج منها آخر الأبد .

وقال أبو عمران الجونى : إذا كان يوم القيامة أمر الله بكل جبار وكل شيطان وكل من كان يَخاف الناس فى الدنيا شره ، فأوثقوا فى الحديد ، ثم أمر بهم إلى جهنم ، ثم أوصدوها عليهم ، أى: أطبقوها ــ قال : فلا والله لا تستقر أقدامهم على قرار أبدا ، ولا والله لا ينظرون فيها إلى أديم سماء أبدا ، ولا والله لا تلتقى جفون أعينهم على غَمْض نوم أبدا ، ولا والله لا يذوقون فيها بارد شراب أبدا . رواه ابن أبى حاتم .

آخر تفسير سورة « البلد » ولله الحمد والمنة

(١) فى م : « الآيات » .
(٢) رواه الإمام أحمد فى المسند (٢/ ١٦٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما .
(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٣١٩) من حديث جرير رضى الله عنه .
(٤) زيادة من أ . (٥) فى أ : « جابر » .
(٦) سنن أبى داود برقم (٤٩٤٣) .

٩٠ ــ سورة البلد
(مكية وهى عشرون آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ ٩٠ البلد

وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ ٩٠ البلد

وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ ٩٠ البلد

﴿ سورة البلد مكية وآيها عشرون ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (لا أقسم بهذا البلد) أقسم سبحانه بالبلد الحرام وبما عطف عليه
على أن الإنسان خلق ممنوا بمقاساة الشدائد ومعاناة المشاق واعترض بين القسم وجوابه بقوله تعالى
٢ (وأنت حل بهذا البلد) إما لتشريفه عليه الصلاة والسلام بجعل حلوله به مناطاً لإعظامه بالإقسام
به أو للتنبيه من أول الأمر على تحقق مضمون الجواب بذكر بعض مواد المكابدة على نهج براعة
الاستهلال وبيان أنه عليه الصلاة والسلام مع جلالة قدره وعظم حرمته قد استحلوه فى هذا البلد
الحرام وتعرضوا له بما لاخير فيه وهموا بما لم ينالوا عن شرحبيل يحرمون أن يقتلوا بها صيداً
ويعضدوا بها شجرة ويستحلون إخراجك وقتلك أو لتسليته عليه الصلاة والسلام بالوعد بفتحه
على معنى وأنت حل به فى المستقبل كما فى قوله تعالى إنك ميت وإنهم ميتون تصنع فيه ماتريد من
القتل والأسر وقد كان كذلك حيث أحل له عليه الصلاة والسلام مكة وفتحها عليه وما فتحت على
أحد قبله ولا أحلت له فأحل عليه الصلاة والسلام فيها ماشاء وحرم ماشاء قتل ابن خطل وهو متعلق
بأستار الكعبة ومقيس بن ضبابة وغيرهما وحرم دار أبى سفيان ثم قال إن الله حرم مكة يوم خلق
السموات والأرض فهى حرام إلى أن تقوم الساعة لم تحل لأحد قبلى ولن تحل لأحد بعدى ولم تحل
لى إلا ساعة من نهار فلا يعضد شجرها ولا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ولا تحل لقطتها إلا لمنشد
فقال العباس يارسول الله إلا الاذخر فإنه لقيوننا وقبورنا وبيوتنا فقال عليه الصلاة والسلام إلا
٣ الاذخر (ووالد) عطف على هذا البلد والمراد به إبراهيم وبقوله تعالى (وما ولد) إسماعيل والنبى
صلوات الله عليهم أجمعين حسبما ينبىء عنه المعطوف عليه فإنه حرم إبراهيم ومنشأ إسماعيل ومسقط
رأس رسول الله عليهم الصلاة والسلام والتعبير عنهما بما دون من للتفخيم والتعظيم كتنكير والد
وإيرادهم بعنوان الولاد ترشيح لمضمون الجواب وإيماء إلى أنه متحقق فى حالتى الوالدية والولدية

لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾	٩٠ البلد
أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾	٩٠ البلد
يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾	٩٠ البلد
أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾	٩٠ البلد
أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾	٩٠ البلد
وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾	٩٠ البلد
وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾	٩٠ البلد
فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾	٩٠ البلد

وقيل آدم عليه السلام ونسله وهو أنسب لمضمون الجواب من حيث شموله للكل إلا أن التفخيم
٤ المستفاد من كلمة ما لابد فيه من اعتبار التغليب وقيل وكل والد وولده (لقد خلقنا الإنسان فى كبد)
أى تعب ومشقة فإنه لايزال يقاسى فنون الشدائد من وقت نفخ الروح إلى نزعها وماوراءه يقال كبد
الرجل كبداً إذا وجعت كبده وأصله كبده إذا أصاب كبده ثم اتسع فيه حتى استعمل فى كل نصب ومشقة
ومنه اشتقت المكابدة كما قيل كبته بمعنى أهلكه وهو تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما كان
٥ يكابده من كفار قريش والضمير فى قوله تعالى (أيحسب) لبعضهم الذى كان عليه الصلاة والسلام
يكابد منهم ما يكابد كالوليد بن المغيرة وأضرابه وقيل هو أبو الأشد بن كلدة الجمحى وكان شديد القوة
مغتراً بقوته وكان يبسط له الأديم العكاظى فيقوم عليه ويقول من أزالنى عنه فله كذا فيجذبه عشرة
* فيتقطع قطعاً ولا تزل قدماه أى أيظن هذا القوى المارد المتضعف للمؤمنين (أن لن يقدر عليه أحد)
أن مخففة من أن واسمها الذى هو ضمير الشأن محذوف أى أيحسب أنه لن يقدر على الانتقام منه أحد
٦ (يقول أهلكت مالا لبداً) يريد كثرة ما أنفقه فيما كان أهل الجاهلية يسمونها مكارم ويدعونها معالى
٧،٨ ومفاخر (أيحسب أن لم يره أحد) حين كان ينفق وأنه تعالى لايسأله عنه ولا يجازيه عليه (ألم نجعل
٩ له عينين) يبصر بهما (ولساناً) يترجم به عن ضمائره (وشفتين) يستر بهما فاه ويستعين بهما على
١٠ النطق والأكل والشرب وغيرها (وهديناه النجدين) أى طريق الخير والشر أو الثديين وأصل النجد
١١ المكان المرتفع (فلا اقتحم العقبة) أى فلم يشكر تلك النعم الجليلة بالأعمال الصالحة وعبر عنها

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ ٩٠ البلد

فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ ٩٠ البلد

أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ ٩٠ البلد

يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ ٩٠ البلد

أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ٩٠ البلد

ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ ٩٠ البلد

أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ ٩٠ البلد

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ ٩٠ البلد

عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾ ٩٠ البلد

١٢ بالعقبة التي هي الطريق في الجبل لصعوبة سلوكها وقوله تعالى (وما أدراك ما العقبة) أي أي شيء
١٣ أعلمك مااقتحام العقبة لزيادة تقريرها وكونها عند الله تعالى بمكانة رفيعة (فك رقبة) أي هو إعتاق
١٤،١٥،١٦ رقبة (أو إطعام في يوم ذي مسغبة) أي مجاعة (يتيما ذا مقربة) أي قرابة (أو مسكيناً ذا
متربة) أي افتقار وحيث كان المراد باقتحام العقبة هذه الأمور حسن دخول لا على الماضي فإنها لا تكاد
تقع إلا مكررة إذ المعنى فلا فك رقبة ولا أطعم يتيما أو مسكيناً والمسغبة والمقربة والمتربة مفعلات
من سغب إذا جاع وقرب من النسب وترب إذا افتقر وقرىء فك رقبة أو أطعم على الإبدال من
١٧ اقتحم (ثم كان من الذين آمنوا) عطف على المنفي بلا وثم للدلالة على تراخي رتبة الإيمان ورفعة محله
لاشتراط جميع الأعمال الصالحة به (وتواصوا بالصبر) عطف على آمنوا أي أوصى بعضهم بعضاً
١٨ بالصبر على طاعة الله (وتواصوا بالمرحمة) بالرحمة على عباده أو بموجبات رحمته من الخيرات (أولئك)
إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز صلته وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه
للإيذان ببعد درجتهم في الشرف والفضل أي أولئك الموصوفون بالنعوت الجليلة المذكورة (أصحاب
١٩ الميمنة) أي اليمين أو اليمن (والذين كفروا بآياتنا) بما نصبناه دليلا على الحق من كتاب وحجة أو
٢٠ بالقرآن (هم أصحاب المشأمة) أي الشمال أو الشؤم (عليهم نار مؤصدة) مطبقة من آصدت الباب إذا

سورة البلد

ترتيبها ٩٠ — آياتها ٢٠

مكية في قوله الجمهور بتمامها، وقيل مدنية بتمامها، وقيل مدنية إلاّ أربع آيات من أولها. واعترض كلا القولين بأنه يأباهما قوله تعالى ﴿بهذا البلد﴾ [البلد: ١، ٢] قيل ولقوة الاعتراض ادعى الزمخشري الإجماع على مكيتها وسيأتي إن شاء الله تعالى أن في بعض الأخبار ما هو ظاهر في نزول صدرها بمكة بعد الفتح، وهي عشرون آية بلا خلاف. ولما ذم سبحانه فيما قبلها من أحب المال وأكل التراث أكلاً لمّاً ولم يحض على طعام المسكين ذكر جل وعلا فيها الخصال التي تطلب من صاحب المال من فك الرقبة وإطعام في يوم ذي مسغبة وكذا لما ذكر عز وجل النفس المطمئنة هناك ذكر سبحانه ها هنا بعض ما يحصل به الاطمئنان فقال عز قائلاً:

بسم الله الرحمن الرحيم

لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحۡسَبُ أَن
لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانٗا
وَشَفَتَيۡنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ
فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ
وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ
مُّؤۡصَدَةُۢ ﴿٢٠﴾

﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * لا أُقْسِمُ بِهَذَا البَلَدِ**﴾ أقسم سبحانه بالبلد الحرام أعني مكة فإنه المراد بالمشار إليه بالإجماع وما عطف عليه على الإنسان خلق مغموراً في مكابدة المشاق ومعاناة الشدائد. وقوله تعالى ﴿**وأنْتَ حِلٌّ بِهَذا البَلَدِ**﴾ على ما اختاره في الكشاف اعتراض بين القسم وجوابه وفيه تحقيق مضمونه بذكر بعض المكابدة على نهج براعة الاستهلاك وادماج لسوء صنيع المشركين ليصرح بذمهم على أن الحل بمعنى المستحل بزنة المفعول الذي لا يحترم، فكأنه قيل ومن المكابدة أن مثلك على عظم حرمته يستحل

بهذا البلد الحرام ولا يحترم كما يستحل الصيد في غير الحرم عن شرحبيل بن سعد يحرمون أن يقتلوا به صيداً ويعضدوا شجره ويستحلون إخراجك وقتلك، وفي تأكيد كون الإنسان في كبد بالقسم تثبيت لرسول الله ﷺ وبعث على أن يطأ من نفسه الكريمة على احتماله فإن ذلك قدر محتوم، وجوز أن يكون الحل بمعنى الحلال ضد الحرام قال ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن جرير وغيره: وأنت يا محمد يحل لك أن تقاتل به. وأما غيرك فلا. وقال مجاهد: أحله الله تعالى له عليه الصلاة والسلام ساعة من نهار وقال سبحانه له ما صنعت فيه من شيء فأنت في حل لا تؤاخَذ به، وروي نحو ذلك عن أبي صالح وقتادة وعطية وابن زيد والحسن والضحاك ولفظه: يقول سبحانه أنت حل بالحرم فاقتل إن شئت أو دع وذلك يوم الفتح، وقد قتل ﷺ يومئذ عبد الله بن خطل وهو الذي كانت قريش تسميه ذا القلبين قدمه أبو برزة سعيد بن حرب الأسلمي فَضُرِب بأمره ﷺ عُنُقَه وهو متعلق بأستار الكعبة وكان قد أظهر الإسلام وكتب لرسول الله ﷺ شيئاً من الوحي فارتد وشنع على رسول الله ﷺ بأن ما يمليه من القرآن منه عليه الصلاة والسلام لا من الله تعالى وقتل غيره أيضاً كما هو مذكور في كتب السير، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله تعالى حرّم مكة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام إلى أن تقوم الساعة لا تحل لأحد قبلي ولن تحل لأحد بعدي ولم تحل لي إلاّ ساعة من نهار، فلا يعضد شجرها ولا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ولا تحل لقطتها إلاّ لمنشد» فقال العباس: يا رسول الله إلاّ الأذخر فإنه لقيوننا وقبورنا وبيوتنا فقال عليه الصلاة والسلام: «إلاّ الأذخر» وتَقْدِيمُ المسند إليه عَلَى هذا للاختصاص كما أشير إليه في خبر ابن عباس. و ﴿حل﴾ على معنى الاستقبال بناء على أن نزول السورة قبل الهجرة التي هي قبل الفتح بكثير وفي خبر رواه عبد بن حميد عن ابن جبير ما هو ظاهر في أن الآية نزلت بعد أن ضرب أبو برزة عنق ابن خطل يوم الفتح فإن صح لا يكون في معنى الاستقبال لكن الجمهور على الأول، وفي تعظيم المقسم به وتوكيد المقسم عليه بالإقسام توكيد لما سيق له الكلام وهو على ما ذكر أن عاقبة الاحتمال والمكابدة إلى الفتح والظفر والغرض تسليته ﷺ ثم ترشيحها بالتصريح بما سيكون من الغلبة وتعظيم البلد يدل على تعظيم من أحل له وفي الإقسام به توطئة للتسلية لأن تعظيم البلد تعظيم للساكن فيه، وجوز أن يكون الحل على نحو ما ذكر في هذا الوجه لكن المعنى وأنت حل بهذا البلد مما يقترفه أهله من المآثم متحرج بريء منها والمعنى في الإقسام بالبلد تعظيمه، وفي الاعتراض ترشيح التعظيم والتشريف بكون مثله ﷺ في جلالة القدر ومنصب النبوة ساكناً فيه مبايناً لما عليه الغاغة والهمج والفائدة فيه تأكيد المقسم عليه بأنهم من أهل الطبع فلا ينفعهم شرف مكان والمتمكن فيه كأنه قيل: أقسم بهذا البلد الطيب بنفسه وبمن سكن فيه أن أهله لفي مرض قلب وشك لا يقادر قدره. وقيل: الحل صفة أو مصدر بمعنى الحال يقال حل أي نزل يحل حلاً وحلولاً ويقال أيضاً هو حل بموضع كذا كما يقال حال به والقول بأن الصفة من الحلول حال لا حل ومصدر حل بمعنى نزل الحلول، والحل بفتح الحاء والحلل فقط ناشيء من قلة التتبع. والاعتراض لتشريفه ﷺ بجعل حلوله عليه الصلاة والسلام مناطاً لإعظام البلد بالإقسام به وجعل بعض الأجلّة الجملة على هذا الوجه حالاً من هذا البلد وكذا جعلها بعضهم حالية على الوجهين قبل إلاّ أن الحال على ثانيهما مقارنة وعلى أولهما مقدرة أو مقارنة إن قيل إن النزول ساعة أحلت مكة وجعلها ابن عطية حالاً على الوجه الأول أيضاً أعني كون الحل بمعنى المستحل لكن قيده بكون لا نافية غير زائدة فتأمل وأيًّا ما كان ففي الإشارة وإقامة الظاهر مقام الضمير من تعظيم البلد ما فيهما.

﴿وَوَالِدٍ﴾ عطف على هذا البلد المقسم به وكذا قوله تعالى ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ والمراد بالأول آدم عليه السلام وبالثاني جميع ولده على ما أخرج الحاكم وصححه من طريق مجاهد عن ابن عباس ورواه جماعة أيضاً عن مجاهد وقتادة وابن جبير. وقيل: المراد آدم عليه السلام والصالحون من ذريته، وقيل نوح عليه السلام وذريته، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي عمران أنهما إبراهيم عليه السلام وجميع ولده وقيل إبراهيم عليه السلام ولده إسماعيل عليه السلام والنبي ﷺ ادعى أنه ينبيء عن ذلك المعطوف عليه فإنه حرم إبراهيم ومنشأ إسماعيل ومسقط رأس رسول الله ﷺ عليهن أجمعين. وقال الطبري والماوردي: يحتمل أن يكون الوالد النبي ﷺ لتقدم ذكره، وما ولد أمته لقوله عليه الصلاة والسلام «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد» ولقراءة عبد الله وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم وفي القسم بذلك مبالغة في شرفه عليه الصلاة والسلام وهو كما ترى وقيل المراد كل والد وولده من العقلاء وغيرهم، ونسب ذلك لابن عباس. وأخرج ابن أبي حاتم وغيره من طريق عكرمة عنه أنه قال: الوالد الذي يلد وما ولد العاقر الذي لا يلد من الرجال والنساء، ونسب إلى ابن جبير أيضاً فما عليه نافية فيحتاج إلى تقدير موصول يصح به المعنى الذي أريد كأنه قيل ﴿ووالد﴾ والذي ما ولد وإضمار الموصول في مثله لا يجوز عند البصريين ومع هذا هو خلاف الظاهر، ولعل ظاهر اللفظ عدم التعيين في المعطوفين وظاهر العطف على هذا البلد إرادة من له دخل فيه وشهرة بنسبة البلد إليه أو المشهور في ذلك إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وتنكير ﴿والد﴾ على ما اختاره غير واحد للتعظيم وإيثار ما على من بناء على أن المراد بـ ﴿ما ولد﴾ العاقل لإرادة الوصف فتفيد التعظيم في مقام المدح وأنه مما لا يكتنه كنهه لشدة إبهامها ولذا أفادت التعجب أو التعجيب وإن لم تكن استفهامية كما في قوله تعالى ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ [آل عمران: ٣٦] أي أي مولود عظيم الشأن وضعته، والتعظيم والتعجيب على تقدير أن يراد بما ولد ذرية آدم عليه السلام مثلاً قيل باعتبار التغليب وقيل باعتبار الكثرة. وما خص به الإنسان من خواص البشر كالعقل وحسن الصورة ومن تأمل في شؤون الإنسان من حيث هو إنسان يعلم أنه من تلك الحيثية معظّم يتعجب منه ﴿لَقَد خَلَقْنا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ أي في تعب ومشقة فإنه لا يزال يقاسي فنون الشدائد من وقت نفخ الروح إلى حين نزعها وما وراءه يقال: كبد الرجل كبداً فهو أكبد إذا وجعته كبده وانتفخت فاتسع فيه حتى استعمل في كل تعب ومشقة ومنه اشتقت المكابدة لمقاساة الشدائد، كما قيل: كبته بمعنى أهلكه وأصله كبده إذا أصاب كبده. قال لبيد يرثي أخاه:

يا عين هل بكيت أربد إذ ... قمنا وقام الخصوم في كبد

أي في شدة الأمر وصعوبة الخطب. وعن ابن عمر يكابد الشكر على السراء ويكابد الصبر على الضراء وعن ابن عباس وعبد الله بن شداد وأبي صالح والضحاك ومجاهد أنهم قالوا أي خلقناه منتصب القامة واقفاً ولم نجعله منكباً على وجهه. وقال ابن كيسان: أي منتصباً رأسه في بطن أمه فإذا أذن له في الخروج قلب رأسه إلى قدمي أمه وهذه الأقوال كلها ضعيفة لا يعول عليها بخلاف الأول وقد رواه الحاكم وصححه وجماعة عن ابن عباس، وروي عن غير واحد من السلف نعم جوز أن يكون المعنى لقد خلقناه في مرض شاق وهو مرض القلب وفساد الباطن، وهذا بناء على الوجه الثالث من الأوجه الأربعة السابقة في قوله تعالى ﴿لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد﴾ والمراد بالإنسان عليه الذين علم الله تعالى منهم حين خلقهم أنهم لا يؤمنون ولا يعملون الصالحات. والظاهر أن المراد على ما عداه جنس الإنسان مطلقاً. وقال ابن زيد: المراد بالإنسان

آدم عليه السلام، وبالكبد السماء وشاع في وسط السماء كالكبيداء والكبيداة والكبداء واكبد بفتح فسكون وليس بشيء أصلاً. والضمير في قوله تعالى ﴿أَيَحْسَبُ﴾ على ما عدا ذلك راجع إلى ما دل عليه السياق مما يكابد منه ﷺ ما يكابد من كفار قريش وينتهك حرمة البيت وحرمته عليه الصلاة والسلام. وعليه للإنسان والتهديد مصروف لمن يستحقه، وقيل على إرادة البعض هو أبو الأشد أسيد بن كلدة الجمحي وكان شديد القوة مغتراً بقوته وكان يبسط له الأديم العكاظي فيقوم عليه ويقول: من أزالني عنه فله كذا، فيجذبن عشرة فينقطع قطعاً ويبقى موضع قدميه، وقيل عمرو بن عبد ود، وقيل الوليد بن المغيرة، وقيل أبو جهل بن هشام، وقيل الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف. ويجوز أن يكون كل من هؤلاء سبب النزول فلا تغفل. وجعل عصام الدين الاستفهام للتعجيب على معنى أيظن ﴿أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي على الانتقام منه ومكافأته بما هو عليه ﴿أَحَدٌ﴾ مع أنه لا يتخلص من المكابدة ومقاساة الشدائد وأن مخففة من الثقيلة ولعل في ذلك إدماج عدم إيمان بالقيامة ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً﴾ أي كثيراً من تلبد الشيء إذا اجتمع، أي يقول ذلك وقت الاغترار فخراً ومباهاة وتعظماً على المؤمنين وأراد بذلك ما أنفقه رياء وسمعة وعبر عن الاتفاق بالإهلاك إظهاراً لعدم الاكتراث وأنه لم يفعل ذلك رجاء نفع فكأنه جعل المال الكثير ضائعاً وقيل: يقول ذلك إظهاراً لشدة عداوته لرسول الله ﷺ مريداً بالمال ما أنفقه في معاداته عليه الصلاة والسلام وقيل: يقول ذلك إيذاءً له عليه الصلاة والسلام، فعن مقاتل أن الحارث بن نوفل كان إذا أذنب استفتى الرسول ﷺ فيأمره عليه الصلاة والسلام بالكفارة. فقال: لقد أهلكت مالاً لبداً في الكفارات والتبعات منذ أطعت محمداً ﷺ. وقيل: المراد ما تقدم أولاً إلاّ أن هذا القول وقت الانتقام منه وذلك يوم القيامة، والتعبير عن الإنفاق بالإهلاك لما أنه لم ينفعه يومئذ. وقرأ أبو جعفر «لبّدا» بشد الباء وعنه وعن زيد بن علي «لَبْداً» بسكون الباء وقرأ مجاهد وابن أبي الزناد «لُبُداً» بضم اللام والباء.

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ أي حين كان ينفق ما ينفق رئاء الناس أو حرصاً على معاداته ﷺ يعني أن الله تعالى كان يراه وكان سبحانه عليه رقيباً فهو عز وجل يسأله عنه ويجازيه عليه. وفي الحديث: «لا تزول قدما العبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع عن عمره فيم أفناه، وعن ماله مم جمعه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به». وجوز أن يكون المعنى إن لم يجده أحد على أن المراد بالرؤية الوجدان اللازم له، و ﴿لَمْ﴾ بمعنى لن وعبر بها لتحقق الوقوع يعني أنه تعالى يجده يوم القيامة فيحاسبه على ذلك. وعن الكلبي أن هذا القائل كان كاذباً لم ينفق شيئاً فقال تعالى: أيظن أن الله تعالى ما رأى ذلك منه فعل أو لم يفعل أنفق أو لم ينفق بل رآه عز وجل وعلم منه خلاف ما قال وقرر سبحانه القدرة على مجازاته ومحاسبته والاطلاع على حاله بقوله جل وعلا ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ يبصر بهما ﴿وَلِسَاناً﴾ يفصح به عما في ضميره ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستر بهما فاه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب والنفخ وغير ذلك والمفرد شفة وأصلها شفهة حذفت منها الهاء ويدل عليه شفيهة وشفاه وشافهت وهي مما لا يجوز جمعه بالألف والتاء وإن كان فيه تاء التأنيث على ما في البحر ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ أي طريقي الخير والشر كما أخرجه الحاكم وصححه والطبراني وغيرهما عن ابن مسعود وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس، وروي عن عكرمة والضحاك وآخرين وأخرجه الطبراني عن أبي أمامة مرفوعاً والنجد مشهور في الطريق المرتفع قال امرؤ القيس:

فريقان منهم جازع بطن نخلة وآخر منهم قاطع نجد كبكب

وسميت نجد به لارتفاعها عن انخفاض تهامة والامتنان المحدث عنه بأن هداه سبحانه وبيّن له تعالى شأن ما إن سلكه نجا وما إن سلكه هلك، ولا يتوقف الامتنان على سلوك طريق الخير. وقد جعل الإمام هذه الآية كقوله تعالى ﴿إنّا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾ [الإنسان: ٣] ووصف سبيل الخير بالرفعة والنجدية ظاهر بخلاف سبيل الشرفان فيه هبوطاً من ذروة الفطرة إلى حضيض الشقاوة فهو على التغليب أو على توهم المتخيلة له صعوداً ولذا استعمل الترقي في الوصول إلى كل شيء وتكميله كذا قيل. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس أنهما الثديان وروي ذلك عن ابن المسيب أي ثديي الأم لأنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه والارتفاع فيهما ظاهر والبطن تحتهما كالغور، والعرب تقسم بثديي الأم فتقول: أما ونجديها ما فعلت. ونسب هذا التفسير لعليّ كرم الله تعالى وجهه أيضاً. والمذكور في الدر المنثور من رواية الفريابي وعبد بن حميد وكذا في مجمع البيان عنه كرم الله تعالى وجهه أن أناساً يقولون: إن النجدين الثديان، فقال: لا هما الخير والشر. ولعل القائل بذلك رأى أن اللفظ يحتمله مع ظهور الامتنان عليه جداً ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ الاقتحام الدخول بسرعة وضغط وشدة ويقال: قحم في الأمر قحوماً رمى نفسه فيه من غير روية. والعقبة الطريق الوعر في الجبل وفي البحر هي ما صعب منه وكان صعوداً، والجمع عقب وعقاب وهي هنا استعارة لما فسرت به من الأعمال الشاقة المرتفعة القدر عند الله تعالى والقرينة ظاهرة وإثبات الاقتحام المراد به الفعل والكسب ترشيح، ويجوز أن يكون قد جعل فعل ما ذكر اقتحاماً وصعوداً شاقاً وذكره بعد النجدين جعل الاستعارة في الذروة العليا من البلاغة والمراد ذم المحدث عنه بأنه مقصر مع ما أنعم الله تعالى به عليه من النعم العظام والأيادي الجليلة الجسام كأنه قيل فقصر ولم يشكر تلك النعم العظيمة والأيادي الجسيمة بفعل الأعمال الصالحة بل غمط النعمة وكفر بالمنعم واتبع هوى نفسه. وقوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ أي أي شيء أعلمك ما هي تعظيم لشأن العقبة المفسرة بقوله سحبانه ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ الخ وتفسيرها بذلك بناء على الادعاء والمجاز وهو مما لا شبهة في صحته وإن لم يتحد العقبة والفك حقيقة فلا حاجة إلى تقدير مضاف كما زعمه الإمام ليصح التفسير، أي وما أدراك ما اقتحام العقبة فك الخ وقال بعضهم: يحتمل أن يراد بالعقبة نفس الشكر عبر بها عنه لصعوبته ولا يأباه و ﴿ما أدراك﴾ الخ لأنه بمنزلة ما أدراك ما الشكرُ ﴿فك رقبة﴾ وهو كما ترى. وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وابن أبي شيبة عن ابن عمر أن العقبة جبل زلال في جهنم. وأخرج ابن جرير عن الحسن نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنها النار وفي رواية عبد بن حميد عنه أنها عقبة بين الجنة والنار، وعن مجاهد والضحاك والكلبي أنها الصراط وقد جاء في صفته ما جاء، ولعل المراد بعقبة بين الجنة والنار هذا. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي رجاء أنه قال: بلغني أن العقبة التي ذكر الله تعالى في القرآن مطلعها سبعة آلاف سنة ومهبطها سبعة آلاف سنة، وهذه الأقوال إن صحت يتعين عليها أن يراد بالاقتحام المرور والجواز بسرعة وأن يقدر المضاف أي وما أدراك ما اقتحام العقبة فك الخ. وجعل الفك وما عطف عليه نفس الاقتحام على سبيل المبالغة في سببيته له حتى كأنه نفسه، ومآل المعنى فلا فعل ما ينجو به ويجوز بسببه العقبة الكؤود يوم القيامة وبهذا يندفع ما نقله الإمام عن الواحدي بعد نقله تفسيرها بجبل زلال في جهنم وبالصراط ونحو ذلك وهو قوله. وفي هذا التفسير نظر لأن من المعلوم أن هذا الإنسان وغيره لم يقتحموا عقبة جهنم ولا جاوزوها فحمل الآية عليه يكون إيضاحاً للواضحات ثم قال: ويدل عليه أنه لما قال سبحانه ﴿وما أدراك ما العقبة﴾ فسرها جل شأنه بفك الرقبة والإطعام انتهى. نعم أنا لا أقول بشيء من ذلك حتى تصح فيه تفسيراً للآية رواية مرفوعة. والفك تخليص شيء من شيء قال الشاعر:

فيا رب مكروب كررت وراءه وعانٍ فككت الغل منه ففداني

وهو مصدر فك وكذا الفكاك بفتح الفاء كما نص عليه الفرّاء والمشهور أن المراد به هنا تخليص رقبة الرقيق من وصف الرقبة بالإعتاق. وأخرج أحمد وابن حبان وابن مردويه والبيهقي عن البراء رضي الله تعالى عنه أن «أعرابياً قال: يا رسول الله علمني عملاً يدخلني الجنة، قال: «أعتق النسمة وفك الرقبة» قال: أو ليسا بواحد؟ قال: «لا إن عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في عتقها» الحديث. وعليه يكون نفي العتق عن المحدث عنه متحققاً من باب أولى، ومن الفك بهذا المعنى إعطاء المكاتب ما يصرفه في جهة فكاك نفسه. وجاء في فضل الإعتاق أخبار كثيرة منها ما أخرجه أحمد والشيخان والترمذي وغيرهم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من النار حتى الفرج بالفرج». وهو أفضل من الصدقة عند أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه وعند صاحبيه الصدقة أفضل والآية على ما قيل أدل على قول الإمام لمكان تقديم الفك على الإطعام. وعن الشعبي تفضيل العتق أيضاً على الصدقة على ذي القرابة فضلاً عن غيره. وقال الإمام: في الآية وجه آخر حسن وهو أن يكون المراد أن يفك المرء رقبة نفسه بما يكلفه من العبادة التي يصير بها إلى الجنة فهي الحرية الكبرى وعليه قيل يكون ما بعد من قبيل التخصيص بعد التعميم وفيه بعد كما لا يخفى ﴿**أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ**﴾ مصدر ميمي بمعنى السغب قال أبو حيان: وهو الجوع العام، وقد يقال: سغب الرجل إذا جاع. وقال الراغب: هو الجوع مع التعب وربما قيل في العطش مع التعب وفسره ابن عباس هنا بالجوع من غير قيد. وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن إبراهيم أنه قال في يوم فيه الطعام عزيز وليس بتفسير بالمعنى الموضوع له. ووصف اليوم بذي مسغبة نحو ما يقول النحويون في قولهم هم ناصب ذو نصب، وليل نائم ذو نوم، ونهار صائم ذو صوم ﴿**يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ**﴾ أي قرابة فهو مصدر ميمي أيضاً من قرب في النسب، يقال: فلان ذو قرابتي وذو مقربتي بمعنى. قال الزجاج: وفلان قرابتي قبيح لأن القرابة مصدر. قال:

يبكي الغريب عليه ليس يعرفه وذو قرابته في الحي مسرور

وفيه بحث. وفي ﴿**إطعام**﴾ هذا جمع بين الصدقة والصلة وفيهما من الأجر ما فيهما. وقيل: إنه لا يخص القريب نسباً بل يشمل من له قرب بالجوار ﴿**أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ**﴾ أي افتقار وهو مصدر ميمي كما تقدم من ترب إذا افتقر ومعناه التصق بالتراب، وأما أترب فاستغنى أي صار ذا مال كالتراب في الكثرة كما قيل أثرى. وعن ابن عباس أنه فسره هنا بالذي لا يقيه من التراب شيء. وفي رواية أخرى هو المطروح على ظهر الطريق قاعداً على التراب لا بيت له وهو قريب مما أخرجه ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعاً: «هو الذي مأواه المزابل» فإن صح لا يعدل عنه. وفي رواية أخرى عن ابن عباس هو الذي يخرج من بيته ثم يقلب وجهه إليه مستيقناً أنه ليس فيه إلاّ التراب. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه إنه قال في ذلك يعني بعيد التربة أي بعيداً من وطنه وهو بعيد، والصفة على بعض هذه التفاسير صفة كاشفة وبعض آخر مخصصة واو على ما في البحر للتنويع. وقد استشكل عدم تكرار لا هنا مع أنها دخلت على الماضي وهم قالوا يلزم تكرارها حينئذ كما في قوله تعالى ﴿فلا صدق ولا صلى﴾ [القيامة: ٣١] وقول الحطيئة:

وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا

وشذ قوله:

لا هم إن الحارث بن جبله جنى على أبيه ثم قتله

وكان في جاراته لا عهد له فأي أمر سيىء لا فعله

وأجيب بأن اللازم تكرارها لفظاً أو معنىً، وهي هنا مكررة معنى لأن تفسير العقبة بما فسرت به من الأمور المتعددة يلزم منه تفسير الاقتحام فيكون: فلا اقتحم العقبة في معنى فلا فك رقبة ولا أطعم يتيماً الخ. وقد يقال في البيت نحو ذلك بأن يقال إن العموم فيه قائم مقام التكرار ويلزمه على ما قيل جواز لا جاءني زيد وعمرو لأنه في معنى لا جاءني زيد ولا جاءني عمرو ومنعه الزجاج والفرّاء: يجوز أن يكون منه قوله تعالى ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه عطف على المنفي أعني ﴿اقتحم﴾ فكأنه قيل فلا اقتحم ولا آمن، ولا يلزم منه كون الإيمان غير داخل في مفهوم العقبة لأنه يكفي في صحة العطف والتكرار كونه جزءاً أشرف خص بالذكر عطفاً فجاءت صورة التكرار ضرورة إذ الحمل على غير ذلك مفسد للمعنى، ويلزمه جواز لا أكل زيد وشرب على العطف على المنفي والبعض المتقدم يمنعه. وقيل: إن لا للدعاء والكلام دعاء على ذلك الكافر أن لا يرزقه الله تعالى ذلك الخير. وقيل لا مخفف إلا للتحضيض كهلاً، فكأنه قيل: فهلا اقتحم أو الاستفهام محذوف والتقدير أفلا اقتحم ونقل ذلك عن ابن زيد والجبائي وأبي مسلم. وفيه أنه لم يعرف تخفيف ألا التحضيضية وأنه كما قال المرتضى يقبح حذف حرف الاستفهام في مثل هذا الموضع، وقد عيب على عمر بن أبي ربيعة قوله:

ثم قالوا تحبها قلت بهراً عدد الرمل والحصى والتراب

وقولهم: لو أريد النفي لم يتصل الكلام بشيء لظهور كان تحت النفي واتصال الكلام عليه، قيل الكلام إخبار عن المستقبل فليس مما يلزم فيه التكرير أي فلا يقتحم العقبة لأن ماضيه معلوم بالمشاهدة فالأهم الإخبار عن حاله في الاستقبال لكي لتحقق الوقوع عبر بالماضي. ونقل الطيبي عن أبي علي الفارسي عدم وجوب تكريرها راداً على الزجاج في زعمه ذلك. وقال: هي كلم والتكرر في نحو ﴿فلا صدق ولا صلى﴾ لا يدل على الوجوب كما في ﴿لم يسرفوا ولم يقتروا﴾ [الفرقان: ٦٧] وعلى عدم التكرار جاء قول أمية السابق:

إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك لا ألما

والمتيقن عندي أكثرية التكرر وأما وجوبه فليس بمتيقن والله تعالى أعلم. وقرأ ابن كثير والنحويان «فَكَّ» فعلاً ماضياً «رَقَبَة» بالنصب «أو أطعم» فعلاً ماضياً أيضاً وعلى هذه القراءة ففك مبدلة من اقتحم وما بينهما اعتراض. ومعناه أنك لم تدركنه صعوبتها على النفس وكنه ثوابها عند الله عز وجل وقرأ أبو رجاء كذلك إلاّ أنه قرأ «ذا مسبغة» بالألف على أن «ذا» منصوب على المفعولية بأطعم أي أطعم في يوم من الأيام إنساناً ذا مسغبة، ويكون يتيماً بدلاً منه أو صفة له. وقرأ هو أيضاً والحسن «أو إطعام في يوم ذا» بالألف أيضاً على أنه مفعول ب للمصدر. وقرأ بعض التابعين «فَكُّ رَقَبَةٍ» بالإضافة «أَوْ أَطْعَمَ» فعلاً ماضياً وهو معطوف على المصدر لتأويله به. والتراخي المفهوم من ﴿ثم﴾ في قوله تعالى ﴿ثم كان﴾ الخ رتبي فالإيمان فوق جميع ما قبله لأنه يستقل بكونه سبباً للنجاة وشكراً بدون الأعمال كما فيمن آمن بشرطه ومات في يومه قبل أن يجب عليه شيء من الأعمال فإن ذلك ينفعه ويخلصه بخلاف ما عداه فإنه لا يعتد به بدونه. وقوله سبحانه ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ عطف على آمنوا أي أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على الإيمان والثبات عليه أو بذلك والصبر على الطاعات أو به، والصبر عن المعاصي وعلى المحن التي يبتلى بها الإنسان ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ أي بالرحمة على عباده عز وجل ومن ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو تواصوا بأسباب رحمة الله تعالى وما يؤدي إليها من

الخيرات على أن المرحمة مجاز عن سببها أو الكلام على تقدير مضاف. وذكر أن ﴿تواصوا بالصبر﴾ إشارة إلى تعظيم أمر الله تعالى ﴿وتواصوا بالمرحمة﴾ إشارة إلى الشفقة على خلق الله تعالى وهما أصلان عليهما مدار الطاعة وهو الذي قاله بعض المحققين الأصل في التصوف أمر أن اصدق مع الحق وخلق مع الخلق ﴿أُوْلَئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيّز صلته وما فيه من معنى البعد مع قرب المشار إليه لما مر غير مرة، أي أولئك الموصوفون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أي جهة اليمين التي فيها السعداء أو اليمن لكونهم ميامين على أنفسهم وعلى غيرهم ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ بما نصبناه دليلاً على الحق من كتاب وحجة أو بالقرآن ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ أي جهة الشمال التي فيها الأشقياء أو الشؤم على أنفسهم وعلى غيرهم ﴿عَلَيْهِمْ نارٌ﴾ عظيمة ﴿مُؤْصَدَةٌ﴾ مطبقة من آصدت الباب إذا غلقته وأطبقته وهي لغة قريش على ما روي عن مجاهد. وظاهر كلام ابن عباس عدم الاختصاص بهم، ومن ذلك قول الشاعر:

تحن إلى أجبال مكة ناقتي ... ومن دونها أبواب صنعاء مؤصده

ويجوز أن يكون من أوصدت بمعنى غلقت أيضاً وهمز على حد من قرأ بالسؤق مهموزاً وقرأ غير واحد من السبعة موصدة بغير همز. فيظهر أنه من أوصدت وقيل: يجوز أن يكون من آصدت وسهلت الهمزة وقال الشاعر:

قوماً يعالج قملاً أبناؤهم ... وسلاسلاً ملساً وباباً موصداً

والمراد مغلقة أبوابها، وإنما أغلقت لتشديد العذاب والعياذ بالله تعالى عليهم. وصرح بوعيدهم ولم يصرح بوعد المؤمنين لأنه الأنسب بما سيق له الكلام، والأوفق بالغرض والمرام ولذا جيء بضمير الفصل معهم لإفادة الحصر واعتبروا غيباً كأنهم بحيث لا يصلحون بوجه من الوجوه لأن يكونوا مشاراً إليهم ولم يسلك نحو هذا المسلك في الجملة الأولى التي في شأن المؤمنين. ونقل عن الشمني أنه قال: الحكمة في ترك ضمير الفصل في الأولين والإتيان بدله باسم الإشارة أن اسم الإشارة يؤتى به لتمييز ما أريد به أكمل تمييز كقوله:

هذا أبو الصقر فرداً في محاسنه ... من نسل شيبان بين الضال والسلم

ولا كذلك الضمير فإن اسم الإشارة البعيد يفيد التعظيم لتنزيل رفعة محل المشار به إليه منزلة بعد درجته فاسم الإشارة للتعظيم والإشارة إلى تمييزهم واستحقاقهم كمال الشهرة بخلاف أصحاب المشأمة والضمير لا يفيد ذلك انتهى. وفيه أن اسم الإشارة كما يفيد التعظيم يفيد التحقير كما في قوله تعالى ﴿فذلك الذي يدع اليتيم﴾ [الماعون: ٢] وكمال الشهرة كما يكون في الخير يكون في الشر، فأي مانع من اعتبار استحقاقهم كمال الشهرة في الشر. وبالجملة ما ذكره ليس بشيء ولعل ما ذكرناه هو الأولى فتدبر.